حكايا النّاي

في العشق والعشاق

الدكتور
حسين الصديق

بسم الله الرحمن الرحيم

حكايا الناي

في العشق والعشّاق

الدكتور حسين الصديق

منهل القراء
عبدالقادر يحيى استانبولي
سـوريا - حلب - أدونيس
2285141
0932426945
Aleebo33@gmail.com
فرع 2 – الجميلية
مكتبة منهل القراء
2211772
0994310675

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان: حكايا الناي
في العشق والعشّاق

عدد الصفحات: 185
قياس الصفحات: 15 × 22

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
2019

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب
بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أو الالكترونية
إلا بأذن خطي من المؤلف
رقم موافقة الإعلام 116537

حكايا الناي

في العشق والعشّاق

الدكتور

حسين الصديق

دار استانبولي

للطباعة والنشر والتوزيع

أيها الحبيب...

مذ دخلت قلبي، تحطّمت الأصنام فيه،

ولم يعد مسكناً لغيرك.

وعندما يولّي الناس وجوههم شطر البيت العتيق،

فإنني أولي وجهي شطر قلبي،

لأنك فيه.

حسين الصّدّيق

"ومهما أحبّ الصورةَ المليحةَ باعتبارٍ عقليٍ، على ما أوضحناه، عُدّ ذلك وسيلةً إلى الرُّفعةِ والشَاهي في الخيريّةِ، بما هو أقربُ في التأثيرِ منَ المؤثّرِ الأوّلَ، والمَعشوقِ المَحْضِ، وأشبهُ بالأمورِ العاليةِ الشريفةِ"

رسالة في العشق - ابن سينا

مقدمة

حكايا الناي كلفظها، مفتوحةً مطلقةً، لا بداية لها ولا نهاية، فهي تمثيلُ حالةِ العشقِ وأوضاعِه المترجّحةِ بين غوصٍ في محيط العشق، وسموٍّ، وتحليقٍ في آفاق سرمديّة بأجنحةِ الشّوق، وهو حالُ النّاي الأزليّة السّرمديّة، واجبةِ الوجودِ في عينها، في قُربها ونأيها عن الحبيب، بين طربٍ وفرحٍ وغناء، وأنينٍ وحزنٍ وبُكاءٍ، لا يقرُّ لها قرارٌ إلاّ بالعودة إلى حيث صدرت. والنّاي هي ناي مولانا جلال الدين الروميّ، في مثنويه، اتخذ منها معادلاً للذات الإنسانية في صدورها عن النفخة الربّانية الأولى، وابتعادها عن منشئها، وطول بكائها عليه، وجمال أنينها شوقاً إليه.

وقُسمت الحكايا على قسمين: الأول حول الحبِّ والمحبةِ، والعشقِ والعشّاقِ، والثاني: كلمات وأشعار في العشق والجمال. وقد كتبت على فترات متباعدة: القسم الأول خلال عام 2006، والثاني مما نشر على صفحتي في الفيس بوك، بين عامي 2012 و2018.

حلب المحروسة في 25 /جمادى الآخرة/ 1440، 3 /آذار/ 2019

حسين الصديق

مقدمة

بقلم الصديقة أمينة علوة

يمتاز فكر كاتب الحكايا بمزايا قانون الشغف، فلا تلبث أن تقرأ الفكرة الأولى عن العشق حتى ينفتح القلب، وكأنه روح ظمآنة لا جتراع كؤوس الفكرة التالية، وما يليها، والفكرة الأخرى، وهكذا تنتقل القراءة، من قراءة بالعين إلى قراءة بالقلب، وكأنّ عيون القلب كلها استيقظت على انبهارٍ متسلسلٍ حلقات الجمال، تنتهي ببوح القلب بأسراره، قائلاً: هذه قصة حياتي التي اغتالوها مني، قبل العودة إلى ذاتي. فتستجيب الروح لهذا الاعتراف، وتمضي مع القلب إلى حيث يأمرها قانون العشق، بالانجذاب من النقص إلى الكمال، لأن الكمال عين الجمال.

ومؤلف الحكايا من أكثر الكتاب حرصاً على احترام عقل القارئ، فهو حنون كقلب أم حرّة، ومهيب كأب حكيم وحليم، وكريم كالربيع في تركيز جهده لكشف عوالم القلب الخفية. فالقلب عنده جنة متدرجة النعيم بحسب نسبة تحقق الذات، والعودة إليها، بدرجات عالية من الإدراك والمعرفة والفهم لمنابع الإحساس في قضايا الجمال بين العاشق والمعشوق.

وما يحدد قوة الانجذاب تلك هو الجمال، فكلما كان موضوعه مبهراً وقوياً وسامياً كانت قوة انجذاب العاشق إلى المعشوق قوية وصاخبة وشديدة.

ومع المضي في قراءة الكتاب يتضح ما في القلب من عوالم وآفاق لها خصوصياتها التوّاقة إلى الجمال والكمال، ومفاتيح هذه العوالم ماهي إلاّ الشوق الكامن الذي يبدو بعذاباته وعذوباته كبراق نصفه من نور ونصفه الآخر من نار، يحمل القلب، ويطير به بجناحي العشق، نحو النداء الذي لا صوت له، ذلك النداء المهيب الجليل، نداء الجمال المطلق الأزلي والسرمدي. وعندما يبلغ القلب بهذا النداء سماءه الأولى من الجمال، يتوهج النور توهجاً ينبهر به القلب، لتهدأ النار في شطر البراق، ويصبح القلب قادراً على الطواف بقوة العشق في سماء كمال ما. وكل كمال يبلغ طوره الأعلى من العشق، يشعر بشغف إلى كمال أسمى، وكأن الشوق هنا يحافظ على صورته بُراقاً يشغفه السمو والآفاق العلا، لبلوغ السماوات الأسمى للجمال اللامتناهي. ولا يتعب القلب من ذلك كله، ولا يصيبه الملل ولا الكلل، فهو لا يهدأ ولا يرتاح، وكيف ذاك وهو الذي ما كُوِّن إلاّ من عنصر الحركة الدائبة بحثاً عن كمال الجمال. وما دام في حركة فهو

حيّ، وطالما هو حيّ فهو عاشق، ومادام عاشقاً فهو في شوق، لأن الشوق هو قانون قوة الجذب نحو الكمال، والكمال عين الجمال.

حكايا الناي نغم يؤديه قلم فارس غيور على القلب، إنه نغم يأخذ بقلبك من العشق الصغير الإنساني، إلى العشق الكبير؛ عشق الذّات الإلهية، بكل ما يعنيه هذا العشق من كمال الجمال. ويبدو عازف هذا النغم أنيق الروح، متألقاً في حبّه وعشقه، معلماً في العشق الذي هو عنده شوق النقص إلى الكمال، وقوةٌ جاذبةٌ تعيد خلق العاشق على يد معشوقه؛ فكل معشوق يصنع عاشقَه على شِكْلِه، وعلى العاشق أن يعرف من يعشق، ليدرك إلى أين يقوده العشق، وماذا يصنع به.

حكايا الناي، كتاب يروي الحكايا التي تُنشدها روح مؤلفه حسين الصّدّيق، العارفةُ العاشقةُ، والمتوهّجةُ المتألقةُ بنور القلب، والتي جمعت في أطيافها ونغماتها أشواق شباب الأزل، وشباب الأبد، سعياً وراء إزالة الحجب عن عالم الحب الجميل، ورفع كل ما عاناه القلب العاشق بسبب الجهل بحقيقة الحب، وتجهيل المحبين به، من آلام الحرمان، ووجع الأحزان. فالقلب كائنٌ كونيٌّ، توّاقٌ إلى الجمال، والحبُّ سبيله إليه. إنه يسمع، ويرى، ويحزن، ويفرح، ويبتسم ويبكي، وينكسر، ويمرض، شفاؤه في قوة عشقه، وسقياه المعرفة، وعندما

يتعرض لأذى بجهل، فإنه يتأبّى ويرفض، ويغضب ويثور، ولا يخلصه من أحزانه إلاّ الحب يدخله، فيحمله إلى جنة العشق والجمال والكمال، وبذا كمال وجوده.

والقلب، عند حسين الصديق، جوهر نوراني، يتجوهر بالعشق، ويطفو على محيّا العاشق حُسْناً بيّناً، وينعكس على وجه الحبيب سعادةً وفرحاً، واستبشاراً وحبوراً. حكايا الناي عزفٌ منفردٌ لمسيرة العشق في كل كائنات الكون والوجود، وأظهرها الذات الإنسانية، وهو ينسف فكرة الحبِ، رديفِ التكاثر والحفاظ على النوعِ البشري، مما يسود عند أغلب الناس. إنّه القوة التي تمكّن العاشق من البحث عنه ومعرفته، وإدراكه، والتوحّد به، ليرقى درجات الكمال، وصولاً إلى تحقيق مفهوم العبودية والاستخلاف على الحقيقة، مبتعداً عن خطابٍ يصور الحبَ نوعاً من الاستجداء المادي بحثاً عن سدّ رغبة جسدية، يرافقه غزلٌ حسي، يتغنى بمحاسن المرأة بألفاظ تصف جسدها الترابي الحائل إلى الزوال، حتى إذا ما حصّل منها تلك الرغبة انصرف عنها كليّاً، وغالباً ما ينتهي بالألم والأسى والحزن، أو بشعور بالإحباط الناتج عن اكتشاف زيف الكلمات التي تعرّت بتحقق الرغبة.

أما حبُّ الجوهر فهو قوة عشق جاذبةٍ، من ذاتٍ خيّرةٍ؛ عطاؤها بلا حدود ولا معايير، فما الحب إلا إرادة الخير للمحبوب،

يتحقق فيه إرادة ذاتين تتجوهران بالعشق، الذي منّ به عليهما الفيض الرباني، فأصبح العاشق والمعشوق، معاً، مجلى الجمال والكمال الإلهيين. وهذا ما يمكن النقلة النورانية من الحب والعشق البشريين، إلى العشق الأزليّ الإلهي. فالذات العاشقة ترى في الذات التي تعشقها التجلي الإلهي عبر الفيض النوراني والإشراق الرباني، فتتلاشى الأشباح، وتتحد الأرواح، ليصبح كلٌّ من العاشق والمعشوق ذاتاً واحدة، لا تعرف تمييزاً بين فاعل ومنفعل. وكل مرتبة من مراقي العشق في درجات النورانية، لها مقام خاص بها من الوجد، يقف فيه العاشقان، فتغيب الحواس، وتظهر صفات الأسماء التي علّمها الله آدم، في الذّات المتّحدةِ بالعشق، فتحلُّ صفاتُ المعشوق في ذات العاشق، ويعبّر عن ذلك بمرتبة من مراتب الوجد، لا تني ترقى برقي العشق في درجات نور الفيض الربّاني. وعندها يبدأ العاشق بالتشكّل على صفات معشوقه، وهو ما صاغه حسين الصديق في قوله: "يصنعُ المعشوقُ عاشقَه على شِكْلِه، فانظرْ، ويحك، منْ تعشق". وتتوحّد الذاتان، ويصبح الغياب والحضور، واللقاء والفراق سيّان. وقديماً أثر عن أحد دهاقنة هندسة العمران: نحن ننشئ العمران، والعمران ينشئنا، وكذلك العشق: فنحن نعشق المعشوق، والمعشوق يعيد هندستنا على صورته.

وبعد؛ فإنّ حكايا الناي عزفُ روحٍ عاشقةٍ للجمال، بعد أن عشقها الكمال، يُنشئُ معبداً في داخلك، وينزع عنك، بلطفٍ ربّاني، قميصَك الطينيّ المنسوجَ بخيوط الشقاء، والمحاكَ من حبال الظلام، ويضع على كتفيك بردةَ الخلود، بردةً من نور، كلما خطوت بها خطوة، تألق أمامك دربك إلى السماء، حيث ستنصت إلى حقيقة حكايا النّاي، وأنت، وذاتك، والحبُّ، والعشقُ، والنُّورُ، في صلاة شكرٍ وحمدٍ على تلك النعمة التي فاضت عليك من النور الأزليّ.

حلب في 25/شباط/2019

القسم الأول

حول الحب والمحبة، والعشق والعشاق

حد المحبة

أزمة المصطلحات والمفهومات ليست مجرد أزمة لغوية أو نقدية أو أدبية، وإنما هي أزمة حضارية، إن حضارة تستخدم في حياتها مصطلحات لا تعرف مفهوماتها، أو هي مختلفة فيها، أو ليست من نتاجها؛ لهي حضارة محكوم عليها بالضياع؛ لأنّ المفهومات هي معيار الوجود وتجليه في الواقع، من خلال علاقة الفرد بالآخر، وبالمجتمع، والكون، والله.

من تلك المصطلحات التي نستخدمها يومياً، وترد على لسان كلٍّ منا مرات عديدة، في كل يوم، ونسمعها في كل المحطات الفضائية، وفي المسلسلات والأغاني والأفلام، مصطلح الحب. فقد أجريت سبراً مع طلابي في قسم اللغة العربية حول هذا المصطلح، طوال سنوات كنت أطرح فيها السؤال التالي: ما الحب؟ وكانت النتيجة دائماً هي نفسها، معظم الطلاب لا يعرفون عامة، وهو عند قلة منهم مجرد مشاعر سامية، وعواطف وأحاسيس، تربط بين شاب وفتاة، وقلة من القليل، وسّعوا من دائرة المفهوم ليشمل الحبَّ بين الأب والأم، والأولاد، وبين الإخوة أنفسهم، وبين الجيران، أمّا الذين ذكروا محبة الوطن أو محبة الله فهم قلة نادرة. إنّ دلالة ذلك واضحة، وهي أننا نحصد ما زرعناه في أولادنا، خلال مراحل التعليم كلها،

فنحن لم نعلمهم التفكير، ونسينا نحن أنفسنا تلك القيم التي تحملها هذه المفهومات، فكيف نعلّمها إياهم؟!

إن كان هذا هو حال مفهوم الحب عندنا، وهو ما نستخدمه يومياً، فكيف هو حال مفهوم الوطن، والشرف، والكرامة، والإباء، والعزة، والنخوة، والحرية، والمسؤولية...إلى آخر تلك المصطلحات التي لم تعد موجودة أساساً في لغتنا اليومية؟

حدّ المحبة أنّها: إرادة الخير للمحبوب. ولا يمكن ادّعاء المحبة من غير معرفة الخير، وما يميزه من الشر، وهي معرفة ضرورية، لا يمكن أن يمتلكها إلّا من امتلك معرفة أخرى، كليّة، تأتي أولاً؛ لأنّها أساس التمييز بين الخير والشر. تلك هي معرفة الذّات، وإدراك نقاط قوتها، وضعفها، ومناشئ هذه النقاط. فمن جهل نفسه، ممن يدعي محبة الحبيب، كان بغيره أجهل، ومن كان كذلك، ما قدر على تمييز الخير من الشر، ولعلّه يقدّم الشرّ لنفسه، وهو يظن أنّه خيرٌ، ويترك الخيرَ، وهو يظنه شراً، لجهله بحقيقة الاثنين. ومن كان حاله كذلك، لم يكن جديراً بادّعاء المحبة؛ لأنّه سيضرّ حبيبه من حيث لا يعلم، ويكون خارجاً بذلك عن حدّ المحبة.

ألا ترى أنّ معظم الناس ممّن حولك يقدّمون لأنفسهم الشر على أنّه خير؟ وإلّا، فما حال من يدخّن، أو يشرب الخمرة، أو يسهر الليل أمام المحطات الفضائية، ويمضي الساعات الطّوال غائصاً في

جوّاله، لينام في النهار، بل ما حال من ملأ بطنه إلى ما بعد حدّ التخمة، ونأى بنفسه عن الحركة، وما اهتمّ إلّا باللذات الآنية، غير آبه بما يعقبها من ألمٍ، أو مرضٍ، أو تعبٍ. فكيف بمن حاله كذلك أن يدّعي محبة غيره، وهو لا يعرف كيف يُحبّ ذاته، فيقدّم لها الخير؟ وهل تصدّق من ادّعى ذلك، وكذّبه الواقعُ؟

المحبة إذن، هي أرادة الخير للمحبوب، ولن يقدر على ادّعاء المحبة من جهل نفسه، ولم يحبّها، فيقدّم لها الخير، وما الخير إلّا السعادة، التي هي أسمى خيرٍ يحصّله الإنسان في وجوده؛ بل هي غاية الوجود، لأنّها تترتب على معرفة الذات التي تمكّن صاحبها من معرفة الله والكون، ومن ثم معرفة الإنسان الذي نفسه جزء من النفس الكلية، لا هو هي، ولا هو منفصل عنها.

المحبة هي أولاً حبّ الذات، القائم على معرفتها، ومعرفة الخير اللائق بها، وهي ثانياً محبة الحبيب الذي لا يمكن معرفته، ولا معرفة الخير اللائق به، إلّا بعد معرفة الذات.

فإذا أدرك الإنسان هذا المعنى من المحبة، عرف أن ما يتكلم عليه الناس، في الأغلب والأعم، ما هو إلّا شهوة، تليق بمستوى وجودهم المادي، القائم على العَرَض، وما يسمونه حبّاً ليس، في الأغلب والأعم، إلّا شهوة ماديّة، يطلبها الجسد لتحقيق لذّة آنية،

تنقضي بانقضائها، ولا علاقة له على الإطلاق بالسعادة. ألا ترى أنّ معظمهم ينصرف عن العشير، في اللحظة التي تلي حصول اللذّة.

فمن عرف هذا، رأى أنّ قلّةً من الناس ارتقت بحبّها عن الشهوة، بوساطة العقل، فصار محبةً تليق بما حققوه من ارتقاء على مستوى الوجود المادي؛ ليبلغوا مرتبة الوجود العقلي، فإن فعلوا ذلك كانوا محبين على الحقيقة، إذ حققوا شرط المعرفة وإرادة الخير.

وقلّةٌ نادرةٌ من الناس، تمكّنت، بفضل من الله، وجهدٍ كبيرٍ منهم، من تربية أنفسهم، وتزكيتها، ليدركوا مرتبة الوجود القلبي، فيكون لهم ما يليق بوجودهم من حبّ، فيسمّى عشقاً؛ لكونه من علائق الجوهر، ومركزه القلب.

ليس الناس بمتساوين على الإطلاق، من حيث نسبتُهم من الوجود، وتقرير حالهم في ذلك ليس حكماً، بل وصفاً، فمن راقب الناس في كلّ زمان ومكان، رأى أنّ نسبتهم من الوجود على أربعة مستويات: الأوّل: المستوى المادي الجسدي، والثاني: الثقافي الاجتماعي، والثالث: العقلي، أما الرابع: فهو الروحي أو القلبي، وهي مستويات لها شكل الهرم في تحققها، وفي نسبة الناس إليها، فأغلب الناس ينتسبون إلى المستويين الأول والثاني، اللّذين يشكّلان قاعدة الهرم، حتى ما بعد منتصفه، وقليل منهم ينتسب إلى المستوى الثالث،

الذي يأتي فوق الثاني، ومن فيه أقل مما في هذا، وأرقى، أمّا القلّة النادرة فهي التي تنتسب إلى الوجود الرابع الذي يقع في ذروة الهرم.

ولا يمكن الفصل بين هذه المستويات، فهي متداخلة فيما بينها في خطوط التماس؛ ولذلك فقد يختلط الأمر على بعض الناس، فيشتهي، وهو يظنّ أنّه يحبّ، ويحبّ، وهو يظن أنه يعشق. ولا يعني هذا حجراً على الحبّ، أو العشق من أن يختلطا بالشهوة؛ بل العشق يشتمل على الحبّ والشهوة معاً، لأن قوى الإنسان متداخلةٌ، لا يمكن الفصل بينها، كما أنّ الحبّ يشتمل على الشهوة، إلّا أنّ الشهوة بعيدة عن الاثنين معاً.

المحبة إرادة الخير للمحبوب، فالله عندما يحب إنساناً يريد له الخيرَ، ويساعده على تحصيله، ويكون عطاؤه له أضعافاً مضاعفةً، في مقابل تقرّبِ الإنسانِ من الله، وكل ذلك بفضل الفيض الإلهي. وكلما زاد الخير المقدم من الله للإنسان كان الإنسان أقدر على اكتشاف تجلي الله فيه، فكأن الله يريد أن يرى تجليه الباطن في الإنسان فيفيض عليه بالخير ليوصله إلى هذا التجلي. كذلك حال المحب مع حبيبه.

ذلك هو حدّ الحب، فمن شاء فلينتسب إلى المستوى الذي يريده، ويظنّ أنّه لائقٌ به، ومن شاء، فليعمل على الارتقاء بنسبته من الوجود، ليكون مُحبّاً، بعد أن كان شهوانياً، وليصبح عاشقاً، بعد أن كان مُحبّاً.

ما الحب؟

كما أن الجوع دليل على وجود الطعام؛ فإن الشعور بالرغبة في المحبة يعني وجود محبة ومحبوب، وإذا لم نستطع أن نعيش هذا النوع من المشاعر الراقية، فليس معنى هذا أنها غير موجودة، فالمحبة قوّة إلهيةٌ، تمكّن صاحبها من كشف الأسرار، يساعدنا فيها المحبوب؛ إذ إنّ العلاقة بين المحبين علاقةُ عطاءٍ، فإذا ما ارتقت أكثر أدركت حدَّ العشق، ومع العشق يشعر العاشق بعدم الرغبة في الانفصال عن المعشوق. فالعشق قوة عظيمة، تمكننا من العيش في أفضل حالاتنا وأسعدها علىا مستويي العَرَض والجوهر، وإذا ما وصل الإنسان إلى هذه الحالة فإنّ الكره يصبح غريباً على قلبه.

لما كان الحب هو إرادة الخير للمحبوب، فقد اقتضى أن يعرف الإنسان ما الخير؟ فيقدمه لنفسه أولاً. ومن ادعى محبّة غيره، وهو جاهل بمعنى الخير؛ فقد دلّ على أنانيته، وخدَع محبوبه. فالحب هو معرفة بالخير، ومن ثم معرفة بالحبيب، ليرى الخير الذي يناسبه، فيقدمه له. ومعيار ذلك أن ينظر مدّعي المحبة في نفسه، إن كان يعرفها، فيحبها؛ ويقدم الخير لها على الحقيقة، أم لا؟ فإنْ فعل جاز له ذلك،

وإلا فهو كذّاب جاهل، يكذب على نفسه، وليس، من كان على هذه الحال، جديراً بادعاء المحبة، وإن فعل عُوتب، وُرد ادعاؤه عليه.

إن علاقة الإنسان بالناس، وبالكون، هي صورة لعلاقته بنفسه أولاً، وهذه العلاقة قائمة على علاقته الذاتية بالله سبحانه، ومحكومة بها. وكل علاقة لا تقوم على المعرفة الضرورية لها، باطلة، ولا توازن فيها ولا انسجام، ولا يمكنها أن تُنتج خيراً. فإذا كان كذلك، فقد صحّ أن الإنسان الجاهل بنفسه، لا يمكنه أن يقدم الخير لها، بل لا يمنحها إلا الشر، في الأعم والأغلب، ومن كان كذلك، كان بغيره أجهل، وأكثر ضرراً.

(المؤمن مرآة أخيه)؛ لأنه يريك نفسك في مرآته، فإذا كانت هذه المرآة مقعّرة أو محدّبة أو مهشّمة، رأيت فيها صورتك كذلك، فاحرص على مصاحبة من كانت نفسه نقية صادقة لترى نفسك على حقيقتها في مرآته الصافية النقية المجلوة، فإنك ترى قبحك فيها، إن كنت كذلك، فتتجنّبه، وإن كنت جميلاً، فإنك ترى جمالك فيها، فتتعلق به وتعرفه، وترعاه. وكذلك يمكن القول في العلاقة بين الرجل والمرأة؛ إذ كان كل منهما، للآخر، مرآته، يرى فيها حقيقته، فيعرف

نفسه. فإذا حصل هذا بين الطرفين زاد تعلّق كل منهما بالآخر، ونمت محبته له.

ومخطئ من ظنّ أن الرجل وحده، هو المسؤول عن علاقته بالمرأة، فالمرأة أيضاً مسؤولة، وإنما الفرق بينهما، في هذا، يعود إلى طبيعة المسؤولية، ودرجتها، بحسب نسب مختلفة ومتنوعة المستويات والأسباب، لها علاقة بأصل تكوين كل منهما، ونسبة وجوده من الوجود.

والحاجة إلى الحب حاجة إنسانية، وهي شعور بالحاجة إلى أن يكون المرء محور اهتمام من شخص آخر، على اختلاف تنوع هذا الشخص ومكانته بالنسبة إلى الطرف الأول؛ ليشعر بوجوده معه، في تعاسته وسعادته، وألمه ورضاه، ومرضه وصحّته. كما أن هذا الإنسان يريد أن يهتمّ بشخص بعينه، ودليل ذلك ما نجده عند الأطفال من رعايتهم لدمية أو حيوان، فلا ينام إلا بجواره، وإذا حزن أو تألم، فإنه يبكي عنده، وتراه يكلمه. من هنا نعلم أن حاجة الإنسان في أن يُحِبَّ، وأن يُحَبَّ حاجة إنسانية، وليست مكتسبة من التربية أو المجتمع.

وفي الغالب فإن الباحث عن الحب لا يفقه معناه على الحقيقة؛ ولذلك فإنه لا يعامل الآخر من خلال كرامته في الوجود، بل

يرى فيه وسيلة لأمر آخر، ولمصلحة ماديّة. والمصلحة تنتفي في الحب، فالمحب، على الحقيقة، لا يَعُدُّ المحبوبَ وسيلةً، بل يحبّه لذاته، ولكن بؤس واقع الإنسان، يجعلنا نرى أن هذا النوع من المحبّة نادر جداً بسبب نقص المعرفة أو غيابها كلياً؛ إذ كيف أُحبُّ أحداً في ذاته، وأنا لا أعرف أنّ لي ذاتاً؟ لأن الحب على حقيقته مرتبط بالذات، فإذا أحب الإنسان في غياب المعرفة، فإن حبّه يكون من جهة العَرَض، وما يتبع ذلك من شهوات، ونزوات، ورغبات، وهذا المستوى من الحب يَشمل علاقات الإنسان بباقي مفردات الوجود، وهو ما يترك آثاراً غاية في السوء في تلك المفردات، تهدم التوازن الضروري لاستمرارها.

يقترن الحب إذاً بالخير، وإلا، فإنَّ هذا الحب ليس خالصاً، بل يداخله شيء من شهوات الجسد. والاستزادة من الخير ديدن المحب على الحقيقة، الذي يعيش بقلبه، وثمّة خير للجسد في طعامه وشرابه ولباسه ونكاحه، وهي مختلفة عن خيرات الذات، وكل موجود يسعى إلى خيره، وينطلق في بحثه عن هذا الخيره من مستوى وجوده الذي يعيش فيه: المادي، والثقافي الاجتماعي، والعقلي، والقلبي، ولا يمنع طالب الخير،

المنطلق من وجوده القلبي، أن يسعى إلى أنواع الخيرات المادية أو الثقافية أو العقلية. وخيرات الذات إنما تتحقّق وتكتمل بالعشق الذي هو سعي النقص إلى الكمال، ويحرّكه في ذلك الشوق.

الحب هو شوقٌ إلى الخيرية، فالنبتة، مثلاً تعشق خيريّتها، أي تعشق وجودها، وخيريتها في الماء والنور، فتراها تصعد إلى الأعلى عشقاً للنور، وتنزل بجذورها إلى الأسفل عشقاً للماء، وكذلك الحيوان والإنسان، في البحث عن الطعام والشراب، على مستوى العَرَض، فكيف إذا ما تعلق الأمر بالجوهر؟ الفراشة تقترب من النور، الذي هو نار، وهي لا تدري، يدفعها إلى ذلك عشقها للنور. إن لذة اتحادها بالنور، تمحو معاناة الاحتراق. إنه تكاملٌ بين العاشقين، وكلما شفَّ الجوهر لديهما، خفَّت نواقصه، حتى يصل إلى مرحلة لا نقصان معها.

إن القدرة على العطاء دليل على قوتنا الداخلية، وليس ثمة أفضل من الحب، لتتحرر طاقات الإنسان كلها. ولو أن العاشق يعيش وفق قوانين العشق الخاصة، لما فصله عن معشوقه مكان ولا زمان.

المحبة والمعرفة

المحبة التي لا تقوم على معرفة الجوهر لا قيمة لها، وإن كانت قائمة على ذلك فهي منه وله، فهي السبيل إلى تعميق اكتشاف هذا الجوهر، ولذلك فإن أيام الإنسان لا تحسب على الحقيقة إذا لم يعرف ذاته، ولا يمكنه ذلك إلا بالعشق الموجه نحو الآخر، والمنتهي بعشق مفردات الكون، ليصبح كل شيء في الوجود معشوقاً، لأنه يرقى به إلى معرفة الخالق ومحبته، فيعشق كل ما خلقه الخالق. وعلى هذا، لا يمكن قيام محبة بين اثنين من أول نظرة؛ لأن الحب قائم على المعرفة، والمعرفة تتطلب زماناً، ونتيجة لذلك فإن الحب من أول نظرة، لا قيمة له، وهو مؤقت غالباً، ويتلاشى مع الزمان إذا لم تحصل معرفة بين الطرفين، فتنمو المحبة أو تتلاشى، استناداً إلى الحديث الشريف: "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"[1]، فإذا كان العاشق يرى الحبيب بعين قلبه، فإنّ نظرته تكون صحيحة، فإما أن تؤكدها المعرفة، أو تنفيها، وهو ما يعرف بالتعارف منذ الأزل، فكأنه حنين إلى المعرفة الأزلية الأولى.

---

(1) رواه البخاري.

إننا عندما نرى كتاباً ما، فإن ما يجذبنا إليه هو عنوانه؛ إذ إننا نشعر أن فيه ما يتصل بنا، فنقترب منه ونحمله، ونبدأ بتقليب صفحاته ونقرؤه، فإذا ما انتهينا منه تمكنّا من معرفته، ومع كل صفحة نقرؤها، ونقلبها، نقرأ صفحة جديدة، ومع مضيّنا في هذا، فإننا نزداد معرفة به، ونرى فيه على الحقيقة ما كنا قد أملناه في عنوانه، أو لا نراه.

كذلك الحال مع الآخَر، فنحن غالباً ما ننجذب إلى شخص ما لدى رؤيتنا له، ولكننا لا نستطيع أن نتعرف إليه على الحقيقة، إلا عندما نخالطه، ونستمع إليه وهو يتكلم، ونرى تصرفاته وسلوكه، ولكن ذلك يبقى ناقصاً، حتى إذا ما اقترب كلٌّ منهما من الآخر، وتعامل معه، كما يقلب القارئ صفحات الكتاب، فسوف يتعرف كل منهما إلى الآخر عن قرب، وكلما مضيا في ذلك، ازدادت معرفة كلٍّ منهما بالآخر، ونما الحب بينهما، أو لا. فكما أنه لا فرق بين مضمون الكتاب وصفحاته وغلافه، فإنه لا فرق بين ذات المحبوب وكل عناصر وجوده، إذ هي هو.

وإذا ظن أحدهم أن عناصر الوجود تنتهي كما تنتهي صفحات الكتاب، فإنه مخطئ في ظنه؛ إذ إننا عندما نقرأ هذه العناصر، فإننا لا نقرأ فيها تلك الأوراق المادية التي لا تتغير، والتي قد تصفرُّ مع الزمان، ولكننا نقرأ على الحقيقة صفحات الذات وصورتها

التي لا تني تتجدد وتزدهر، وعلى هذا فإن كل قراءة كتاب ما، من جديد، تجعلنا نرى فيه أشياء جديدة لم نرها من قبل، وكذلك حال قراءتنا لعناصر وجود المحبوب، فهي تتجدد باستمرار، بتجدد قراءتنا لذاتنا، وامتلاكنا مزيداً من المعرفة بها.

في البدء، كان ثمة معرفة بين العاشقين، قبل مولدهما، "الأرواح جنود مجندة"، فالمعرفة الأولى كانت منذ الأزل، فإذا استطاعا استعادتها مرة أخرى ائتلفا، ففي الأرض ائتلاف وانجذاب، يحققهما تذكر التعارف الأزلي، ثم تحدث بينهما الأمور الروحيّة، والذهنية، والقلبية، فيتعمق الشعور بينهما، ويعظم حبهما.

لولا القوة الموجودة في الحديد ما انجذب نحو المغناطيس، لذلك لا يوجد حبٌّ على الحقيقة من طرف واحد، وإن وجد، فهو الهوى، والميل، والشهوة، وليست محبة حقيقية، كما أنها ليست عشقاً؛ لأنها غير قائمة على معرفة الذات. وحرية الذات في علاقتها بالآخر تقوم على المعرفة، لأن كل شيء في الوجود يقوم عليها، لذلك فإن المعرفة أساس مهم في الوجود الإنساني، فالإنسان كائن معرفي، والذي لا يعرف الحب، ولا يعرف المحبوب بذاته، لن يستطيع أن يحبه، ومن لا يعرف الله لن يستطيع ادعاء محبته.

إنّ كل ما يقع تحت إدراك الحواس نفقده بسرعة، وننساه، أمّا ما ندركه بقلوبنا وبصائرنا، فهو الذي يبقى خالداً، فما نمتلكه بقلوبنا يصبح ملكاً أبدياً لنا، لا يمكن لأحد أن يسلبنا إيّاه، وهذا ينطبق على علاقاتنا مع الناس، فالمحبوب الذي نملك قلبه، ويملك قلبنا، ويعيش فينا ونعيش فيه، لا يمكن أن نفقده أبداً، حتى وإن فقدنا حضوره. فطوبى لمن يملكون الناس بقلوبهم! وبؤساً لمن لا يملكون من الآخرين إلا القشور؛ لأنها سرعان ما تذبل، وتزول. حين لا نعرف الآخرين نظلمهم، وحين لا نعرف أنفسنا نظلمها، وعندما نمتلك المعرفة، نصبح أقدر على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر، وعندها فإننا سنملك القدرة على عيشها عيشاً أفضل وأعمق من سوانا.

إن أرواح العشاق من عمر واحد، ولكنّ أجسادهم قد تختلف في العمر، فروح العاشق التقت روح معشوقها في عالم الذَّرِّ، حين أُشهدا معاً على نفسيهما، ولكن عندما نزلت هذه الأرواح إلى عالم المقيّد، حلّت في أجساد مختلفة الأعمار، ومن هنا جاءت المشكلة، فالأجساد لا تجد تناسباً، أما الأرواح فتجد هذا، فما تقبله الذات ترفضه الأجساد، لما يحيط بها من واقع ومجتمع لا يؤمن بما تؤمن به الذات، وهذا ما يؤدي إلى إعاقة لقاء العاشقين، وبالتالي الذاتين اللتين تعارفتا في ذلك الزمان. فعلى هاتين الذاتين أن تكونا

حكيمتين في علاقتهما في الواقع، حتى لا يثيرا نقمة المجتمع، ولكي يحافظا على اللقاء بينهما في الوقت نفسه.

التقى الفرد الإنساني، في لحظة الإشهاد، بأرواح أناسٍ كثيرين، ولكنه حين جاء إلى الزمان المقيد نسي هذه الأرواح، لوجود نفسه التي أُشهدت في الجسد الترابي الثقيل؛ ولأن الذوات لحظة الإشهاد كانت مشغولة بالله عن نفسها، فلم تلاحظ من معها ومن حولها، ووديل ذلك، أن الأرواح التي كانت مجتمعة هي متناسبة في الأرض. أمّا سبب التنافر فمصدره الأجساد التي أبعدت الأنفس عن خاصّ ما لها من الأمور الشريفة، ولا بد من تنقيتها من أدرانها لتشفّ، وتمكّن النفس من الإشراق.

وقد يسأل سائل: هل هذا يفسّر أن بعض الأشخاص يرتاح لهم أكثر الناس، وتجد لهم في قلوبهم محبة؟ هل لأن مثل هؤلاء الأشخاص تعارف عليهم أغلب الناس في عالم الذر؟ وجواب هذا السؤال هو النفي؛ وذلك لأن أرواح هؤلاء الناس جميلةٌ في أصل نشأتها، فصيغت أجسادهم جميلة بجمال أرواحهم، وليس لأن كل من يراها قد تعرّف عليها عندما كانوا في عالم الذّرِّ، كما أن لها علاقة بالتكوين الجسدي المادي، وبالحالة النفسية، وبالخير الصادر عن هؤلاء.

الجمال والحب والمعرفة

العشق قوة إلهية في الإنسان، تثبت أنه موجود؛ لأنها القوة التي تدفعه إلى الخير والمعرفة. فإذا غاب، فلا قيمة للوجود؛ إذ لا وجود أصلاً.

الجمال الأول هو الله، وعنه صدر الإنسان بفضل الإرادة الإلهية؛ لأن الله أحبّ أن يُعرف، فخلق الخلق، فكان الإنسان مجلى الجمال الإلهي، ولا يمكنه أن يكتشف جماله الذاتي، الذي هو فيض عن الجمال الإلهيّ، إلا بفضل قوة وضعها الله فيه، هي الحب، ولكن الحب وحده لا يكفي، بل يحتاج إلى معلِّم، وهو المعرفة، فقد يرى المحِب الجمالَ، ويظنه قبحاً، وقد يرى القبح ويظنه جمالاً، إذا لم تقده المعرفة. ولما كان الأمر على ما تقدّم، فقد اقتضى أن يقترن الحب بالمعرفة حتى يتمكّن من اكتشاف الجمال، كما اقتضى أن تكون العلاقة بين الحب والمعرفة جدلية، فكلما زادت المعرفة، كان الحب أقدر على اكتشاف الجمال مما يقود الإنسان إلى السعادة المطلقة، وكلما زاد الحب، زادت قدرة الإنسان، وزادت قوته في اكتساب المزيد من المعرفة.

ومن فضل الله تعالى علينا أن يجمعنا بشخص على شِكْلِنا، وحين نعرفه ونحبه، فإننا نحب الإرادة الإلهية التي وفقتنا لأن نلتقي بشخص على صورتنا، إذ تصبح محبتنا له محبتين، محبة لذاته، ومحبة للإرادة الإلهية التي جمعتنا به، فينقلنا جمال لقائه إلى جمال مبدع الجمال، ونتجاوز محبته إلى محبة من خلقه على هذه الصورة التي

جعلتنا نحبه، فنحبه مرتين: مرة لذاته، ومرة لأنه مجلى الذات الإلهية وإرادتها. وعندما نجد هذا الحبيب، فإننا بالضرورة سنتعلق به، تعلقاً هو في حقيقته تعلق بالإرادة الإلهية التي صاغته جميلاً، وهذا يعني أن محبة الحبيب تقود إلى محبة الجمال الأول، وجماله يقود إليه، فإذا تحقق هذا كان عشقاً عظيماً، وهذا نادر التحقق؛ لأن العشق متعلق بمعرفة الإنسان ذاته، ولأنه لا يمكن محبة الآخر دون معرفته، ولا يمكن معرفة الآخر دون معرفة النفس، فإن هذا نادر.

لا يرى العارف في الأشياء إلاّ الجمالَ، إذ إنه يراها على حقيقتها، لأن أصل وجودها جميل، لصدورها عن الجمال المطلق، ولكن غير العارف لا يراها على حقيقتها لبعده هو عن الحقيقة، أما حين يرتقي إلى المعرفة، فإنه يمتلك القدرة على تأمل الملكوت والذات، فيرى الجمال، لأنه في الأصل ليس ثمّة إلاّ هو، أما القبح ففينا، وحال النفس كمرآة مجلوة أو مهشّمة، يكون انعكاس الصورة فيها على شكلها. فالعارف يرى في ذاته جمال الأشياء بمرآته المجلوة، أما صاحب النفس المهشّمة فهو لا يرى في الأشياء إلا القبح، الذي يأتي من نسياننا الجمال الأول الذي خلقنا عليه. ولأننا نسينا ذواتنا، فإننا لم نعد ننظر إلى الأشياء من خلالها، بل من خلال العَرَض، والعَرَض حين لا يخضع للجوهر يصبح قبيحاً، وعندها نرى الأشياء قبيحة. ويحرّض العشقُ النفسَ على اكتشاف الجمال، والتعلق به، ويدفعها إلى

مزيد من معرفة ذاتها، فيتمكن بذلك من مزيد من عشق الحبيب، يتناسب طرداً مع معرفته بنفسه من جهة، ومعرفته بالحبيب.

إنّ هذا الجمال كائن أصلاً في الذات، ولكن المحرّض لهذا الجمال خارجي، وهو المحبوب، وربما اختلف الإحساس به وإدراكه بحسب تحقق الذات، فكلما كان هذا التحقق أكبر، كان شعورها بالتأثر والاستغراب من حالة العشق أشدّ أو أضعف: أشدّ، إذا لم تكن الذات قد عرفت هذه التجارب من قبل، ولم تمر بها، وأضعف، إذا كانت قد عاشتها من قبل. أما الذات التي لا تملك التجربة عينها، فإن تأثرها يكون أقل، وربما يكون أكبر، إذا كان تحقق الذات أكثر، فالعلاقة جدلية بين الذاتين، لأنّ الذات في الأصل لا ترتبط بالعمر، وهي قائمة بالقوة، ولكنها مع هذا مرتبطة في تحققها وتجوهرها بالعمر، أي بالمعرفة التي من المفترض أن تزداد طرداً مع تقدم العمر، إلا أن هذه الذات تستطيع تجاوز الارتباط بالعمر، إذا اتصلت بذات تمكنت من التجوهر، فهي تكتسب منها هذا، وتصبح مقابلة لها؛ لأنها في ذاتها قادرة، وعندها لا تحتاج إلى المعرفة المرتبطة بطول العمر؛ لأنها حصلت على هذه المعرفة دفعة واحدة من الذات المعشوقة.

وبعد هذا، فإنّ على العاشقين ألا يعجبوا من الجمال الذي يتدفق عليهم، بل العجيب ألا يكون الإنسان عاشقاً، ويعدُّ مع هذا من الأحياء! لأن العشق والحياة واحد.

العشق والكمال

سأل سائل عن العشق، قال: إذا كان العشق الإنساني يرقى بصاحبه إلى معرفة الله ونيل رضاه، فهل يتوقف هذا العشق إذا ما بلغ هذه الغاية؟

والجواب هو أن العاشق بشرٌ، ونقصه في بشريته يكمّله عشقٌ، يرقى به نحو معرفة الله ومحبته، ومهما ارتقى العاشق في سلّم الكمال سعياً إلى معرفة الله، ونيل رضاه، فإنه يبقى قاصراً عن إدراك هذا الكمال. وعلى هذا، فقد اقتضى أن يكون العاشق محتاجاً أبداً إلى معشوقه، بشرط أن يرقى كل منهما بالآخر، فيرقى المعشوق برقي العاشق، ويساعده على المزيد من الرقي في العشق؛ ليرقيا معاً في سلم الكمال، وصولاً إلى معرفة الجمال الأول.

إلاّ أنه بإمكان العاشق أن يستغني عن عشق حبيبه في حالة واحدة، وهي عندما يفيض الله عليه بالكمال، فيصبح هو عينه معشوقاً، يعشقه معشوقه، الذي يغدو عاشقاً يرقى بعاشقه، فيكون رسولاً.

ولعلّ هذا أن يكون وقفاً على الأنبياء، أو من اختارهم الله، ليتنزل عليهم الملائكة والروح، فقد كان عليه الصلاة والسلام يرقى بعشقه خديجة، فكان يتحنّث، ويتعبّد في غار حراء، ويرقى في سلم معرفة الذات الإلهية، حتى جاءه الفيض الإلهي بالنبوة، وأصبح إنساناً

كاملاً بفضل النور الإلهي، ولم يعد العشق لديه ضرورة للوصول إلى ما وصل إليه بفضل الفيض الإلهي. أما خديجة العاشقة المعشوقة، فقد أصبحت عاشقة فقط عندما كانت أول من آمن بنبوته، عليه الصلاة والسلام، فأصبحت ترقى بعشقها للإنسان الكامل فيه، الذي لم يكن كذلك، إلا بعد أن تدرّج في معرفة ذاته، ومعرفة الذات الإلهية، بعشقه لخديجة، ولم يصبح معشوقاً إلا بفضل الفيض الإلهي، الذي جعله كاملاً، وبذلك أدركت الكمال، وعَدَّها الرسول عليه الصلاة والسلام من الكاملات من النّساء في الحديث: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد"[1]. وفي الحديث: "حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ"[2]. ولو أن الله حصر الكمال بمن كان من سلالة النبوات، لكان في ذلك إجحاف بحق الناس، إلا أن العدل الإلهي ظاهر في أنّ الكمال لا ينحصر في النسب، وفي هذا دليل على تأكيد قيمة الوعي والعمل الإنسانيّين في الترقي في سلم الكمال.

ويمكن أن يفسر عشق السيدة خديجة للرسول عليه الصلاة والسلام قبل البعثة، بأنها كانت تملك ذاتاً متحققة بالفعل، فكانت

(1) رواه الطبراني.

(2) رواه الترمذي (رقم/3878) وقال: حسن صحيح.

تبحث عن الرجل الذي ترى فيه ذاتها، ولم تجده بين رجال قريش إلا في شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، قبل البعثة، فأحبته؛ لأنها وجدت فيه مرآتها، فرأت فيه كماله من غير أن تعرف أنه سيكون نبياً، على حين أن نساء قريش ما كُنّ يلتفتن إليه لفقره، ولأنهنّ ما كنّ يرين فيه ما كانت تراه السيدة خديجة. لقد عشقته لأنها كانت تسعى إلى كمالها، فكملت به، وعشقها هو، لأنه رأى فيها كماله، فكمل بها من جهة بشريته؛ لأننا نعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولد كاملاً، فلم يُعرف عنه ذنبٌ أو منكرٌ، ولعل في هذا تعليماً لنا، ومعياراً نقيس عليه عشقنا.

سألنا من قبل إن كان بإمكان العاشق أن يستغني عن محبوبه إذا أدرك مرتبة الكمال، والحق أنه لا يجوز استخدام كلمة الاستغناء، بدليل أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يستغن عن السيدة خديجة، وإنما أصبحت نظرته إليها نظرة محبة، ولكن ليس بمفهوم الناس، وإنما بمفهوم محبة الله للناس، محبة الكامل للناقص، يساعده بها على القرب من الكمال.

فمحبة الله لعباده محبة، ومحبة العباد لله عشق، وتفسير ذلك أن العشق سعي النقص إلى الكمال، فالإنسان بنقصه، يعشق الله الكامل، ليتمكن، بعشقه هذا، من الارتقاء في مراتب درجات

الكمال، على حين أن محبة الله للإنسان محبة تقوم على الربوبية التي هي العطف والرعاية والحفظ. وكذلك كانت محبة الرسول عليه الصلاة والسلام للسيدة خديجة بعد وصوله إلى الكمال بفضل الفيض الإلهي، وكما أنّ الله يحب من الإنسان أن يتقرب منه، ويفرح بصلاحه، كذلك كانت محبة الرسول عليه الصلاة والسلام للناس، وللسيدة خديجة على وجه الخصوص، إلا أنّ السيدة خديجة حازت منزلةً خاصة لكونها كانت هي المعشوقة بالنسبة إليه.

إنّ الامتزاج التام الكامل بين العاشق والمعشوق، لا يمكن أن يتحققٍ بسبب من عوائق الجسد، ولو حصل لتوقفت الحياة وانعدم العمل، وذلك في حال حصول الكمال، فإن الذّات تتوقف عن البحث والمعرفة؛ لأن النقص يستدعي العشق، والعشق يستدعي الشوق، والشوق يعني البحث عن المعرفة والعمل بها.

إنّ أجمل مرحلة يصل إليها العاشقان هي أن يكون كل منهما عاشقاً ومعشوقاً في الوقت نفسه؛ لأنهما، في عالم الأرواح المجندة، كانا واحداً، فكل عاشق يعشق خيره، وخيرُه هو عين خير معشوقه؛ إذ إنّ عالم الأرواح هو العالم الحقيقي، والعالم المادي هو عالم الوهم؛ لأنه زائل ومتغير، لا يثبت على حال، أما الذات فهي لا تتغير ولا تتبدل، وحين تتحد الذات العاشقة مع ذات المعشوق، يكون

الرقـي الـذي لا يتحقـق إلا إذا كـان الإنسـان عاشـقاً ومعشـوقاً؛ في الوقت نفسه.

حـين يـرى العاشـق ذاتـه في معشـوقه يـزداد شـعوره بالكمـال والرقـي، وعنـدها لا يكـون في القلـب إلاّ الفـرح والمحبـة، والمحبـة ليسـت هي الأسـاس، بـل الأسـاس هـو وجـود الـذات، فـإن صـدرت عنهـا فهـي قيّمة، وإن صدرت عن العَرَض، فهي عَرَض زائل.

العشق والوجود سيّان، لا ينفصلان، فالعشق يجعل العاشق في حالـة ارتقـاء دائـم، بمجـرد وجـود المعشـوق معـه، فهنـاك أناس كبـار في وجـودهم، لكـنهم لا يجـدون مـن يسـاويهم في ذلـك، حـتى يجـد أحـدهم حبيباً، فيطير به، ويرتقي معه، ويُرقّيه، حتى يطيران معاً بالقوّة نفسـها. ومعلوم أنّ الجسد يتعلم ببطء، على حين أنّ تعلّم الذات سريع، وهـي في الحقيقة لا تتعلم، بل تكتشف وتتذكر خاص ما لها من عالمها الأزلي؛ لأن النفخـة الإلهيـة قائمـة فيهـا، ولـذلك فإنهـا، بمجـرد اكتشـافها يصـبح تطورهـا سـريعاً جـداً، ومترابطـاً كالسلسـلة الـتي تـترابط حلقاتهـا، ويـؤدي السـابق منهـا إلى اللاحـق، إلى درجـة أنّ كـلاًّ مـن العاشـقين، لـو أراد أن يكمل الطريق وحده؛ لاستطاع؛ لأنه امتلك القدرة على الطيران.

في العشق تأكيد على حقيقة الزمان المطلق، كما أن هذا الزمان دليل على حقيقة العشق. ليس العشق مجرد مشاعر فقط، بل هو الوجود عينه. وحين يعشق الإنسان يخشى مرور الأيام، فهو يعيش سعادة غامرة، ولكنها سعادة مشوبة بالشجن الذي يمنح الحياة التي يحياها العاشق قيمة كبيرة؛ إذ يدرك قيمة الزمان الذي يكون فيه مع المعشوق، فيصبح زمانه هذا هو الزمان الحقيقي، ويصبح للحياة عنده قيمة عظيمة؛ لأنه ولد فيها من جديد على يد معشوقه، ويصبح للأيام طعم ونكهة؛ لأنها باتت مختلفة عن الأيام الماضية. وبالمقارنة مع ما تقدم من عمره، يدرك العاشق أن تلك الأيام مكثّفة وغنية، فساعة مع المعشوق تعادل سنوات من عمره الماضي، لم يكن لها معنى، وهي إن قورنت بهذه الأيام لا تعد شيئاً.

ليس ثمّة إنسان ليس بحاجة إلى الحنان، والعطف، والحب، مهما كان قوياً، وحين ابتعد الإنسان عن إنسانيته أصبح يكبت هذه الحاجة، أو يتناساها؛ لأنها أصبحت ضعفاً بالنسبة إليه، مع أنه ليس ثمّة أجمل وأسعد من أن يريح العاشق رأسه على كتف محبوبه فيغفو، وعلى صدره فينام. كم سيسعد الإنسان حين يجد من يحبه! كم هم الناس محرومون من أبسط حاجات الإنسان، وأهمها!

هل العشق يقود إلى الكمال أم الكمال يقود إلى العشق؟

العشق سعيٌ نحو الكمال، والكمال عين الجمال، فكلما كان الجميل أقرب إلى الكمال كان أجمل، والعكس صحيح. وكلما كان الجمال أكمل، كانت قوة العشق المتجهة نحوه أكبر، وأوضح، وأقوى. الجمال يحيط بنا، والعشق قوة تمكّن العاشق من البحث عنه ومعرفته، وإدراكه، ومن ثم الاتصال به، والتوحّد به، ليرقى في درجات الكمال، وصولاً إلى تحقيق معنى العبودية والاستخلاف، على أفضل وجه.

ثمة تكامل بين العاشقين في الأخذ والعطاء؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يصبح كاملاً وحده. ذلك ما نرى صحته في المصالح المادية أيضاً، فالإنسان لا يستطيع أن يأخذ إلا إذا أعطى. إنّ قلب المحب لا يخفق عند لقاء المحبوب، وإنما عندما يذكر اسمه، أو يذكر أمامه، أما حين يلقاه، فيكون القلب في حالة سكينة وطمأنينة؛ لأن الاضطراب من علائم الشوق، على حين أن السكينة من علائم الرضا والسعادة باللقاء.

العشق قوة تقود إلى الكمال، فهو آلة وطاقة، أمّا الكمال فهو صفة من الصفات، والطاقة سبيل امتلاك هذه الصفة. والكمال المطلق لله عزّ وجل، وهي صفة يطمح إليها الإنسان، وهو بهذا يسعى إلى تحقيق النفخة الإلهية القائمة فيه بالقوة، ووسيلته في ذلك قوة العشق. أما جدلية العلاقة بين الطرفين، فهي أنّ العشق لا يستطيع أن يوصل صاحبه إلى الكمال الكلي دفعةً واحدةً، بل لا بد له من أن يمر بمراحل من الكمال على مستوى الذات والصفات، وبهذه الحالة تكون العلاقة جدلية؛ كلما ارتقى العشق بصاحبه درجة أعلى في الكمال، نما العشق لديه وأصبح أكبر؛ لأنه آلة الذات، وعندها تحقق الذات تجوهرَها أكثر، فليس العشق وحدَه يصبح أقوى، بل كل ما لديه من قوى يصبح أفضل، من حيث الأداء والقدرة. وكلّما كان الإنسان أقرب من الكمال، كان أقدر على العشق، وكلما كان أقدر على العشق كان أقرب من الكمال.

والكمال يجذب القوة العاشقة؛ لأنّ حبَّ الكمال والسعي نحوه مبثوث فيها، فهي قوة باحثة عن الكمال، منبثٌّ فيها حبُّه، فهي تعرف ما الكمال، وتبحث عنه، وعندما تدركه، تتعلق به. وكلّما كان

الحبيب أقرب إلى الكمال كان تعلقُ العاشق به أكبر. ونجد هنا أيضاً العلاقة الجدلية بين العشق والكمال؛ لأن العاشق يساعد حبيبه على الارتقاء في درجة الكمال لديه، والاستزادة منه؛ إذ أنّ الإنسان ليس كاملاً على الإطلاق، بل عليه السعي الحثيث إليه، وهو ما لا يبلغه إلا بفضل من الله عز وجل.

والإنسان يعشق كل ما هو كامل، وعشق الكمال في الخارج يساعد الإنسان على بلوغ مرتبة متقدمة من الكمال الخاصّ به، وصولاً إلى الكمال الذي يفيض الله به عليه، ويكون هو قد سعى وعمل وقدم كل ما يملك من طاقات وقوى، ليكون قادراً على تلقي الفيض الإلهي الخاص به، من الكمال والجمال المطلقين.

ومن أكبر نعم الله على الإنسان أن منّ عليه بإمكانية تجوهر ذاته، والآخر الذي يريد يمكن أن يساعده في ذلك لا يستطيع أن يفعل، إلاّ إذا كان قد حقق ذلك هو نفسه من معرفة ذاته وتجوهرها. ومن هنا تأتي قيمة المعلم الذي يأخذ بأيدي المبتدئين، ويمهد لهم طريق الكمال.

ويكون الأثر أكبر وأعمق إذا ما تمكن الإنسان من الاتحاد بهذه الذات العارفة المتجوهرة، ولا يكون ذلك إلا بالعشق بين هاتين

الذاتين، فترقى كل منهما بالأخرى، حتى يصلان إلى الكمال، وهو القرب من الله، ومن هنا كان هدف العشق وغايته معرفة الذات الإلهية، ليتحول الإنسان من الذات الإنسانية إلى النفخة الأولى فيه، من خلال العشق؛ لأنهما يدركان أن معرفة الله هي غاية المنى، وهي الهدف الأسمى؛ إذ ليس الهدف من العشق هو العالم الأرضي، بل التكامل مع ذات إنسانية لتحقيق التجوهر، وهو ما يمكّنها من بلوغ مرتبة كمالها اللائق بها. وهذا ما حققه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ومن هنا كان تفسيرنا للحديث: "حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنْياكُم الطِّيبُ، والنِّساءُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي فِي الصَّلَاةِ"[1]، فالرجل لا يكمل إلاّ بالمرأة، وهي لا تكمل إلا به، وتظل المرأة هي المطلوبة؛ لأنها هي التي أُخذت من الرجل الذي أصبح ناقصاً بصدورها منه، ولو حدث انفصال، بعد لقاء بينهما، لعادت كل ذات إلى ما كانت عليه قبل اللقاء، من الغربة والتشتت والضعف؛ لأن كلّ ذات لا يمكن لها أن تتلقى الفيض الإلهي إلا باكتمالها مع شقيقها الذي أخذ منها.

---

[1] صحيح، رواه أحمد والنسائي والبيهقي والطبراني وغيرهم.

العشق طريق الكمال

العشق يهذّب النفس، ويرقيها، ويساعدها في الانتقال من المادي إلى المجرد، وامتلاك القدرة على تجاوز الماديات من جهة الجسد، ومع العشق تبدأ بعيش عالمها، لأنها مدركة أن العشق مجرد، وأنّ الغاية النهائية منه هي معرفة الله، ونيل محبته، وليس ذلك في منال كل من شاء؛ إذ إنه صعب جداً، لأنه مجرّدُ، والوسيلة إليه العشق البشري، وهو مزيج من المادي والمجرد، وهو لا بدَّ منه لإدراك ذلك العشق.

لا يرتبط عشق الإنسان بالجسد، وإن حصل فيجب أن يرقى إلى عشق الذات، فالطفل حين يتعلم الحساب يبدأ بالتعامل مع المعدودات المادية، ثم ينتقل بالتدريج إلى حل الذهنية منها والمجردة. فالإنسان أفضل وأرقى المخلوقات في خلقه، وفي تسخير المخلوقات كلها له.

هل الوجود من غير عشق، وجود؟ من لا يعشق ليس بموجود، وليس شرطاً أن يكون العشق بين رجل وامرأة، فالقدرة على العشق قوة دافعة لاكتساب المزيد من الخير والنفع. وأرقى مستوى للعشق، المحرض على الخير، والدافع للاستزادة منه، هو عشق الإنسان الذي هو أرقى مجلى للذات الإلهية، لذلك فهو أرقى ممثل للخير؛ ولأن العشق سعي

نحو الكمال، فإنّ العاشق يجهد ليكون كاملاً في ذاته، إرضاءً لحبيبه، وهذا يعني أن العاشق والمعشوق، يرقى كل منهما بصاحبه، فكلٌّ منهما تلميذٌ ومعلمٌ، وكلّما زاد العطاء عظم التلقي والنماء.

منجاة العاشق في حبيبه، وبه، لذلك عليه أن يهمل كل ما يلقاه من الآخرين الذين يسيئون للعشق، وبما أن الناس أقوى بكثرتهم، فعلى العاشق أن يخفي عشقه عن أعين الجهلة من قاصري النظر والفهم؛ لأن الإنسان عدو ما يجهل، وهذا ديدن الإنسان منذ النُّبوات الأولى، وخيرُ شاهد على ذلك أخبار العشاق على مرّ التاريخ.

وعندما يرضى المرء بربط وجوده بالناس، فإنّ عليه أن يستجدي منهم كل شيء، أمّا حين يعلقه بالله فإنه يصبح حراً، قادراً على العشق والإبداع، ومن لا يعشق لا يعرف معنى الإبداع.

الحياة كلها مسؤولية وأمانة، ولكن الإنسان خانها، والناس مساكين في علاقتهم بالله، وبالرسول، والقرآن، والعبادات، فكيف يحكّم المرء هؤلاء الجهلةِ في وجوده؟ إنه لمن الجهل أن نسلّم قياد وجودنا للجهلة، ومن الحكمة أن نتعامل معهم بحكمة.

يصنع العاشق معشوقه على شكله، فانظر ويحك من تعشق

كل من العاشق والمعشوق يسعى إلى إسعاد الآخر وإغنائه بالرّضا، ولذلك يزول بينهما شعور الألم والكره، ولا يبقى إلا المزيد من الحب المتسامي إلى العشق الصاعد نحو الكمال؛ لأنّ كمال الذاتين واحد. حين يوجد العشق، يسعى كل من العاشقين إلى إعادة صياغة الآخر على شِكلِه، فيغدو شبيهاً له في كل شيء: في طريقة تفكيره، ورؤيته للكون والناس، وأشكال سلوكه معهم، فكل منهما يعيد تشكيل معشوقه، وكأنّه يحقق وجوده الواجب من خلال إحيائه فيه من جديد، ومن هنا فقد وجب الاحتياط فيمن نعشق، فلا نعشق إلاّ عظيماً، إذ إنّ عشق الوضيع يورد الهلاك، على حين أن عشق العظيم يرقى بصاحبه إلى مراقي العلا.

أثر الحب في النفس

الحبُّ طاقة ودافعٌ موجودان في الإنسان، فإذا كانا في خدمة النفس، أصبحا عشقاً للكمال، وتقدّماً للذات، أما إذا جعلا في خدمة الجسد، فإنّ النفس تغيب، ويسود العَرَض بحاجاته المادية الفانية. فالمسألة تتعلق بالمستوى الوجودي للإنسان. الحب طاقة، يوجّهها المستوى الذي عليه الإنسان من مستويات الوجود الأربعة: الجسدي المادي، والثقافي الاجتماعي، والعقلي، فالقلبي، وبما أن أكثر الناس يعيشون بأعراضهم، في المستويين الأول والثاني، فإنّ طاقة الحب لديهم تعمل في الاتجاه المادي، يوجهها ما يتعلّق بالجسد، وقلّة من الناس يعيشون في المستوى العقلي، والأقلُّ النادر في مستوى الوجود القلبي، لذلك فإن قلة من الناس يكون عشقها تابعاً لهذا المستوى من الوجود القلبي.

يقوم الحبُّ الإنسانيُّ على علاقة الإنسان بالله، وهو سبيله إلى تحقيق إنسانيّته، ولا يقتصر على تحقيق هذه الوظيفة فحسب، بل إنه يخدم الواقع والمجتمع أيضاً. إنّ الحبَّ الذي يؤدي إلى التقاعس والفشل ليس بحب؛ لأن الحبَّ يصقل النفوس، ويزكيها، ويرقيها، ويسخّيها، ويحمل صاحبَه على التجمّل، والتعطّر، والتلطّف في علاقاته مع الآخرين، فلا تغيب الابتسامة عن وجهه، ويصبح واثقاً بنفسه، وبرّبه على الحقيقة، ولكن معظم النّاس يجهلون ذلك، فكيف يسمحون لمن أحبّ، وقد حُرِموا هم من الحبّ، أن يحب؟

ذات العاشق

تتجلى ذات العاشق في ذات الحبيب، ولهذا فإن العاشق يحب أن يديم رؤية حبيبه، ولا يملُّ من التفكير به، وسماع صوته، وتذكر كلماته؛ إذ إنه يحب أن يرى ذاته في حبيبه. والله سبحانه خلق الإنسان، وجعله مجلى له، لذلك يحبه، وأرسل له الأنبياء ليكون مرآة مجلوة له، فيغدو كالصورة التي خلقه عليها. والإنسان يبحث عن مجلى لذاته، ومرآة، فإذا ما التقى بشطره الآخر، اكتمل به، وحنّ إليه، وما عاد يريد مفارقته، وهو يدرك معه السعادة؛ لأنه يرى ذاته فيه، ومجلى له، فهو في حنين دائم إليه، وإذا نأى عنه سعى إليه، يريد أن يصنعه على شِكلِه، فيكون مرآة مجلوةً له، يرى فيها ذاته مجلوةً ونقيةً، وهو كلما ارتقى به، أدرك أنه أصبح أكثر جلوة ونقاء، وهذا بينهما متبادل؛ لأن كلّ واحد منهما، عاشقٌ ومعشوقٌ؛ في الوقت ذاته.

لا يرى المحِبّ ذاته إلاّ في ذات الحبيب؛ لأنه أصبح مرآته، حتى إن ذاته تغيب، وتصبح جزءاً من المرآة، التي هي ذات الحبيب، فمهما أراد منه الحبيب، استجاب؛ لأنه فقد تفرّده، وأصبح جزءاً منه.

ما تفسير ما بين العاشقين، من توافق في الحركات والأفعال مع البعد المكاني بينهما؟

يرجع سبب ذلك إلى توحّد الذاتين، ويعني أن كلاً منهما يصبح الآخر، يعيش فيه وبه، بقوة الحب والوله، ونرى هذا، على سبيل المثال، بين المريد وشيخه. أما علاقة المحبة بين الذاتين فإنها نوعٌ من التوحّد بينهما، وهو حالٌ ينشأ عن توحّد الذاتين، لتصبحا واحداً في جسدين، فكأنّ الذّات تكتشف صلتها بالذات الأخرى من خلال عناصر التشابه القائمة بينهما، وهذا مدعاة إلى صدور أفعال وأقوال واحدة من الذاتين، على بعد في المكان بينهما، كأنهما ذات واحدة تفعّلت في جسدين، وحين تتوحد الذاتان وتعودان واحدة، فإنّ هذه تفكر بالطريقة ذاتها، ويحصل نوعٌ من التزاوج الفكري، وهذا يبعث الراحة والسعادة في العاشق، ويجعله يشعر بتميزه، وتميّز حبيبه. وهذا أمر عجيب على من لا يعرفه، ولا يعرف وجود الذات في الوجود الإنساني، ولكنه ليس عجيباً على من يعرف ذلك ويدركه، ويتذوقه.

العشق والوجود المادي

الحب الطاهر يُغَذّى بماء العفّة والنبل، وإذا غُذّي بأضدادها مات بسرعة، وحلَّت محلَّه الشهوة والنّزوات الجسدية. فالحبّ أرقى عاطفة إنسانية، ينضوي تحته باقي العواطف والمشاعر النبيلة. على أنّه لا يمكن الفصل بين الذّات والجسد، وأيّهما كان أقوى، كان هو الغالب، وعندما يبدأ الحبُّ، الذي هو من علائق الذات، تبدأ هذه الذات بالظهور والتحقق، ولكنها عندما تعشق، فإنها تسعى إلى لقاء الحبيب، وآلتها في ذلك الجسد، وكلما تجوهرت بالعشق أكثر، كان امتلاكها لهذا الجسد أعظم، وكان اللقاء مع الذات الأخرى أظهر، فلا يعيق الجسد حركتها. أمّا إذا كانت ما تزال في طور التجوهر، وكان امتلاكها للجسد بحسب ذلك، فإنه قد يقع أن يخرج الجسد، في أثناء لقاء الحبيب، عن سيطرة الذات، ليدخل في علاقةٍ عَرَضيّة مع جسد الحبيب، ولكن الذّات تعود، فتمتلك زمام الأمور، فتردع الجسدَ عن التمادي، حتى إذا ما تكرر هذا، تهذّب الجسد، ورقَّ، وشفَّ بنور الذات، حتى يصبح عبداً لها، لا يخرج عن إرادتها.

فإذا ما أدرك العاشقان هذه الحقيقة، عرفا أن ما قد يصدر عن الجسد من حركة خاصة به، أمر طبيعي، وأن هذا الأمر لا بد منه، وبه تتجوهر الذات كلّما كان، فإذا ما تجوهرت، عرف العاشقان

أنهما تمكنا من امتلاك جسديهما، فيصبح آلة طيّعة، تساعد كلاً منهما في امتلاك ذاته وذات حبيبه.

إن جمال الوجود الإنساني قائم في وجود الثنائيات فيه؛ إذ لا أروع من لقاء بعد فراق، ولا أجمل من لقاء فيه خوفُ الفراق، لأنّ كلاً من العاشق والمعشوق حريص على كل لحظة في هذا اللقاء، فلا يبددها بالخوف، أو القلق والبكاء، حتى لا يترك اللقاءَ ينقضي بهذه الأمور التي تضعف من جماله. فمن قلبِ الموتِ تولدُ الحياةُ، ومن قلب الحزن تولدُ السعادةُ.

إنّ تجلّي الله الظاهر موجودٌ في كل المخلوقات، وبخاصة في الجسد الإنساني. إلا أن هذا التجلي يصبح مهماً بالنسبة إلينا، وواضحاً يمكن تأمله بسهولة عندما يتعلق الأمر بجسد الحبيب؛ لأنه في أصل تكوينه جزء من العاشق، وهو تجل قائم، على السواء، عند العاشق والمعشوق، فجسد كل منهما، بالنسبة إلى الآخر، مظهر من مظاهر التجلي الإلهي الظاهر، ولأنه منه، وبما أن العشق يجمع بينهما، فإن كلاً منهما يستطيع معاملة جسد الآخر على أنه جسده، فيتمكن من لمسه، واكتشافه، ومعانقته، وكأنه يكتشف جسده، بل كأنه يكتشف الجسد البشري الممثل للتجلي الإلهي الظاهر أول مرة. ولعل في هذا تكمن روعة العناق بين العاشقين.

بؤس الوجود

عشق الوجود هو مصدر السعادة، وغياب العشق يجعل الوجود بائساً؛ لأن السعادة قوة إلهية وضعها الله فينا، ليكافئنا بها على سعينا في طريق معرفته، لا ينالها إلا من سلك هذا الطريق بقوّة العشق.

في الأصل كانت المحبة، ولم يخلق الكون إلا بها ومن أجلها، وخُلق الإنسان ليكون عاشقاً محبّاً، يعشق الكون، ليعشق الآخر، وليعشق ذاته وصولاً إلى محبّة الله سبحانه وتعالى القائمة على المعرفة. لا أحد في الوجود، منذ وجدت البشرية إلى اليوم، يرفض هذا الكلام أو ينكره، والجميع يتكلّمون على الحبّ، ويتحدّثون عن العشق، ويتغنّون بهما، مدلّلين على حاجتهم الوجوديّة إليه، فالوجود والعشق سيّان، والعلاقة بينهما علاقة وجودية: ينتفي أحدهما بانتفاء الآخر، ولا يوجد أحدهما إلّا بوجود الآخر. وقد شاءت الإرادة الإلهية، عندما جعلت الحبّ في الإنسانية، أن مكّنت الناس من البحث عنه، ومعرفته، وعيشه؛ حتى جاءت النزوات البشرية وما يلحق بها من أنانية وجشع وطمع وتنازع؛ فنسي الإنسان الحبّ، واستبدله بالكراهية والحقد واللؤم، ففقد بذلك معنى وجوده الحق ومصدر سعادته،

وأصبح يعيش في عالم من صنعه هو، مليء بالشرور والآلام والخوف، غابت عنه الطمأنينة والسكينة، وامتلأ بالحزن والتعاسة والبؤس.

ومع أنّ الإنسان يعيش في وسط هذا العالم مشتتاً ممزقاً؛ فهو يأبى إلّا أن يحنّ إلى ذلك العالم الذي يوفره له الحبّ، لأنّه كامن فيه بالقوة لا يستطيع أن يتخلى عنه أو ينساه، لارتباطه بعين وجوده، وهو يناضل ويكافح بأسى وحزن مقاوماً ذلك العالم البائس الذي غاب عنه الحبّ، ويحلم وإنْ بحبّ صغير ينقذه من بؤسه، ويعيد الابتسامة إلى شفتيه، والإشراقة إلى وجهه، والسكينة إلى قلبه، إلّا أنه في بحثه هذا يأبى، حسداً منه، أن يرى غيره وقد تمكّنوا من امتلاك حبّهم الخاص بهم، فيجهد في قتله في قلوبهم، ويدفعهم عنه بحجج شتّى، ومسوغات هو نفسه يبحث عن تدميرها ورفضها في أثناء بحثه عن حبه، ويشترك مع الجميع في رفض أي حبّ يعيشه الآخر، وكأنّه لا يريد لغيره أن يمتلك ما لم يستطع هو أن يمتلكه، ناسياً أنّ هذا ما هو إلّا من آثار عالم الكره الذي يحيط به نفسه، عالم غاب عنه الحبّ؛ فنسي جمال الحبّ وروعته، ونسي أنّه به يرى الآخرين في إشراقهم وجمالهم، ونسي أنّه به يغفر لهم آثامهم، كما نسي أنّه وحده

يمكنه أن يحبّ من جديد ويرى الحبّ مقدساً، وإن لم يتمكن من التعبّد في محرابه.

إنّك بلا شك تدرك معنى الحبّ وقيمته الكبرى في الوجود، وتعيش بين الفينة والأخرى لحظات من الصفاء والعودة إلى الذات؛ رغبةً به وبحثاً عنه، لكنك في عجلة من أمرك، فلا تتوقف عند هذه اللحظات لتمكّنها في قلبك، فتعود لتسقط في عجلة الزمان الدائرة التي تسحق المشاعر، وتجمّد القلوب، فتحيلها إلى آلة لضخ الدم، مغيّباً فيها جوهرها. إذا أردت أن توجد على الحقيقة، فما عليك إلّا أن تفتش في قلبك عن الحبّ الكامن فيه بالقوة. طهّر روحك من الأحقاد، نقّ صدرك من الحسد، وأبعد لسانك عن الكذب، وانظر ببصيرتك إلى مفردات الكون؛ عندها ستجد أنّ جناحيّ ذلك الطائر الذي هو الحبّ عادت، فيك، قويةً، بعد أن نبت الريش عليها، وستتمكنُ من الطيران؛ لتعيش في أفق الإنسان، بعد أن كنت في حضيض البشرية.

مهما كانت أسباب السعادة الخارجية كثيرة، فإنها لا يمكن أن تجعل الإنسان يشعر بها، ما لم تنبع هذه السعادة من داخله. فالعاشق مع حبيبه محرض سعادة له، والثاني كذلك بالنسبة إلى

الأول، فكلاهما مصدر سعادة لصاحبه، وبهذا تكمل السعادة حين يكون الإنسان فاعلاً فيها، ومنفعلاً بها، أي إنّ العاشق يفعّل السعادة في محبوبه، الذي، في الوقت ذاته، يفعّلها فيه، وترتقي هذه الحالة حتى يصبح الإنسان بالنسبة إلى ذاته، فاعلاً ومنفعلاً في السعادة، فهو يفعّلها، وينفعل بها، في الوقت نفسه، وهذه هي السعادة الكاملة، فإذا ما كان الإنسان فاعلاً، أي أنه يقدم السعادة فقط، أو منفعلاً يستقبلها فقط، فهو لا يزال في مستوى ناقص من السعادة، بل لا يمكن أن يُعد سعيداً على الحقيقة أبداً. هل السعادة هي أن يفعل الإنسان كل شيء يريده؟ هل السعادة أن تكون فاعلاً في الحياة أم منفعلاً فيها؟ الذي يستحق الحياة حقاً هو من يصنعها حقاً، إنه الإنسان الذي يعرف ما هدفه في الحياة، فهو لا يفعل من الأمور إلا ما يساعده على تحقيق هذا الهدف، لأن حياة الإنسان قصيرة. وفي ذلك سعادة الإنسان، وهو يدرك حق الإدراك أنّ الحبّ هو طريق السعادة الأوسع.

الحب في مواجهة المعاناة الإنسانية

إنّ سبب اختلال التوازن الداخلي للإنسان هو فقدان الحب، وحين يعشق الإنسان فإن وجوده يكتمل، ولن تكون معاناته كما كانت من قبل، في مواجهة الرياء والنفاق والكذب، مما يستنكره كل شخص على الآخرين، وينسى أنه جزء من هذه اللعبة، فهو يمارسها بشكل أو بآخر. وفقدان المحبة مدعاة لأن يسير الإنسان في هذا الطريق؛ لأن الحب الحقيقي يذكره بطهره الأساسي، فيعود إلى جوهره، ويحيا مع ذاته بحسب ذلك، فهو حين يفكر بالحبيب، يفكر بذاته، وحين يحيا معه، يحيا مع ذاته، وحين تتكرر هذه العملية تُنقّى ذاته، ويتراجع الكذب والغش والكره والحسد. ولعل الناس يلجؤون إلى هذه الأمور لعدم شعورهم بالحب؛ لأنه من المعروف أن الحب يزكّي النفس ويرقيها، ويطهّرها، ويجعل السريرة نقية، والذهن متوقداً، والصدر منشرحاً، والقلب مطمئناً.

العشق يزيد حياة صاحبه نقاءً، ويجمع ذراتها، ويزيل عنها الصدأ، ويعيد تشكيلها؛ لأن الحياة المادية، تفكك الذات، وتشتُّتها، والحب فهو يعيد التركيب، ويلملم الشتات، في مواجهة الظروف، بل في مواجهة الناس غير العاشقين؛ لأن هؤلاء هم الذين يشاركون في

صنع الظروف السيئة، وكلا الفريقين يعاني؛ أولئك معاناتهم جسدية مادية، تتعلق بالعيش، أما العشاق فمعاناتهم تنعكس على الذات، وكلما صفت الذات، وشفّت، خفّ الألم وضعف؛ لأن العاشق حينها يمتلك القدرة على فهم الأشياء.

الوجود يرتبط بالحب، ومأساة الناس الكبرى في نسيانهم عاطفة الحب، فهي في الأصل موجودة فيهم، وهؤلاء ربما يصلون مرحلة، بحسب تقدمهم في السن، يلومون العاشق، ويحقدون عليه؛ لأن من طبيعة البشر حسد ما عند غيرهم من خير لا يملكونه هم، أو لا يريدون لغيرهم امتلاكه، فهم لا يحبّون أن يكون هنالك أحد أفضل منهم وأسعد.

والشباب أكثر بحثاً عن الحب؛ لأنهم قريبو عهدٍ من جوهرهم ومن الفطرة، وليس لذلك ارتباط بالشهوة، فالبحث عن هذه يختلف عن البحث عن ذاك، ومن يتحرك منهم بدافع الشهوة فهو مُساقٌ من قبل منظومة متكاملة من التغريب والتفريغ، القاصدة إلى تشويه الفطرة الأولى للإنسان، مستعينة بالغرائز الطبيعية لدى الشباب، لكنك تجدهم يحنون إلى الحب، وهم يحنون في الوقت ذاته إلى ذواتهم. وكلما طال بهم الزمن، وطال عيشهم مع المتقدمين في العمر، ممن يملؤون

الحياة بالبؤس والتّعاسة، فإنهم يبتعدون عن ذواتهم، وبالتالي عن الحب. فلو حاول أحدهم البحث عن الحب، أو محاولة عيشه، لامه من هم أكبر منه سناً، وسخروا منه، حسداً وحقداً. ومع أنّ المال يمكن التحاسد فيه، لأنّ الذين لا يملكونه لهم الحق بالشعور بالغبن، وحسد من يملكه أكثر منهم، فإن هذا الأمر لا ينطبق على الحب؛ لأن الحب رأس مال كامل لكل إنسان، وحين يحصل عليه أحدٌ غيرنا، فإن هذا لا يعني أنه قد نقص منا، وحين أحب أنا، فإنني لا أبني حبي على تعاسة الآخر، كما هو الحال في اقتسام المال، ومع ذلك فإن معظم الناس ينظرون إلى الحب على أنه شيء مادي، إذا حصل عليه غيرهم حسدوه وحقدوا عليه، ولعل ذلك بسبب شعورهم بأن الحبّ أغنى من كل الأشياء، فهم الذين امتلكوا المال، ما استطاعوا امتلاك الحب، لذلك فهم يحقدون على المحبّين أكثر من حقدهم على من يملك المال، ويكون عداؤهم لهم أشدّ، ونقمتهم عليهم أعظم، فيحرّضون عليهم سطوة العادات والتقاليد الاجتماعية، والقيم الأخلاقية، فيأتي أناس طيبون، بسطاء، يعاملون العاشقين بحسب ذلك، على حين أنهم لو فتشوا لاكتشفوا الحقد الدفين، حقد من يملك المال على من يملك الحب، وكأن مالك المال وفاقد الحب يقول: أنا ملكت الملايين

الكثيرة، ومع هذا لم أستطع الحصول على الحب، وهذا الذي لا يملك شيئاً، يمتلك الحب؟! عليّ، إذاً، أن أدمره!

لا يعرف حقيقة الحب إلا من عاشه على الحقيقة، والناس يعرفون أن الحبّ جميل، ولكنهم لا يدركون قيمته، لأنهم لم يعيشوه، ولا يملكون القدرة على عيشه نظراً للظروف التي ذكرناها آنفاً، وهكذا تتكرر المأساة: أناس يحبون، وأناس يُحرمونه، ويمنع المتقدمون في العمر الشبابَ من الحبِّ، ولعلهم يتذكرون أيام شبابهم، حين مُنعوا منه، فيكررون الاضطهاد نفسه، وكان من العدل أن يسمحوا لهم به، وذلك لأنهم لا يزالون يستطيعون امتلاكه.

وهكذا نرى أثر فقدان الناس الحب في حياتهم، على الرغم من أن الكل يتغنى به، فكل أغنية، وكل قصة، فيها ذكر الحب، أو تدور حوله، وسبب ذلك أنهم لا يعيشونه، ولو عاشوه ما تكدس في أغنياتهم وقصصهم وأحلامهم؛ لأن أكثر الناس يتكلمون على الأشياء التي لا يملكونها، ويريدونها، ويحلمون بها، ولا يتحدثون، غالباً عما يملكونه، ولهذا نجدهم يتكلمون على الحبّ كثيراً؛ لأنه ينقصهم، ويحلمون به، أما المحب، فإنه يبتعد عن الناس؛ لأنه لا يريد أن يكتشفوا سره، ولا يريد أن يعرف الناس حبيبه، فهو لا يتكلم على الحب، بل يداري، ويتغافل؛

لأنه يعرف نتيجة كلامه إذا فعل، وكان الأجدر به أن يفتخر بذلك؛ لأن الحب شيء راقٍ ثمين، ولكن بسبب حسد الناس ولؤمهم، وكيدهم إزاء المحبين، نجد المحب يداري ويكتم حبه.

الحب بين العاشقين مرتبط بالجوهر، وهو ثابت دائم لا يتغير، أما إذا ارتبط بالعرض، فالعَرَض يَمَلُّ، ويتعب، ويتغير، والجوهر لا يتغير، بل يتجوهر، وهو كامن، ثم يظهر، ثم يتحقق فيتجوهر.

إن أرقى مستوى لاكتشاف ذواتنا هو أن نرى الله فيها، حينها نمتلك السعادة المطلقة، ويساعدنا على ذلك العشق، والعشق يقتضي الآخر، فإذا قام العشق بينهما على هذا الأساس، فهما في سعادة أبدية، لا ينغصها إلا الآخرون، من الذين جهلوه ولم يفهموه، ولا ينغصها أيضاً، إلا العَرَض المرتبط بالزمان المقيد؛ لأنه يعيش بينهما، وهؤلاء إنّما يحكمون على الظاهر، ويتحكمون بالعاشقين من ناحية العَرَض فقط، أما الداخل فلا سلطة لهم عليه، وليس من حلٍّ لهما إلا أن ينأيا بذاتيهما عنهم، وذلك لأن الناس إن عرفوا، فإنهم لن يغفروا لهما، بل سوف يعاقبونهما عليه.

لا يوجد أحد ليست لديه القدرة على عيش هذا. وكلما تفردت الذات من خلال شعورها بأنها عاشقة ومعشوقة مكتملة

بذات أخرى، شعرت بجمال وجودها أكثر، وشعرت بحريّتها أكثر، وهنا ينمحي المحال بين الطرفين، ومع قوة الذات تزول الحواجز بينهما، فتقوم الذات العاشقة بأي عمل وهي مطمئنة، ولا تلقى معارضة من الذات الأخرى، وإذا وُجدت الحواجز فهذا دليل على ضعف الذات واستسلامها للقوانين الاجتماعية. وخير مثال على هذا قصة إبراهيم عليه السلام مع إسماعيل، حين أُمر بالذبح، فقد كان إبراهيم يتردد بين رغبته في تحقيق أمر الله، وبين ما جُبل عليه من محبة الولد، فلما انتصرت محبته لله كان الفداء؛ إذ حصل المراد، وربما لو حصل الذبح، لبقي إبراهيم يلوم نفسه.

ومثل هذا حين يطلب العاشق من معشوقه ما ينافي طبيعته وينافي القوانين الاجتماعية والثقافية، فيتردد المعشوق بين تحقيق رغبة عاشقه التي هي رغبته أيضاً، وبين ما نشأت عليه نفسه، من قوانين فرضها عليه المجتمع. وحينما تقبل الذات المعشوقة، وترضخ لرغبة العاشق، وتشرع بالعمل، يوقفها العاشق؛ إذ قد حصل المراد.

إن مَثَل الإنسان العاشق في صحراء الوجود، كَمَثَل إنسان فقير جداً، اغتنى فجأة، فهو بطبيعته، سيحمل قسماً من المال إلى مكان أمين، خوفاً من أن يعود إلى الفقر، فهو يتزود للمستقبل،

وبالعشق يتمكن من تحويل الصحراء الخارجية إلى واحة داخلية. فيحمل العاشق كمية من المشاعر والأفكار والذكريات التي تكفيه لأن يعيش مئات السنين عليها، وكأنها طاقة تكفيه مدى الحياة. وربما لن يشعر بهذه الطاقة لو أنه استمر بالعشق لأنها مختزنة؛ ولأنه ليس بحاجة إليها، فهو، بالقرب من معشوقه، يعيش طاقة جديدة في كل لحظة، أما حين يبتعد عنه، فهو يلجأ إلى الاستعانة بتلك الطاقة، فكل منهما يستمد طاقته من الآخر من خلال التفكير فيه، والعيش به.

لا يكون خلود الذات إلا بالعشق: عشق الكون الذي يقود إلى الجمال الإنساني، ومعرفة الجمال الإنساني في المعشوق تقود إلى معرفة الذات. وتأمل ذات المعشوق، يقود إلى تأمل الذات، وهذا يقود إلى معرفة الله، ويقود إلى الخلود على المستويين: الدنيا والآخرة، فهو لا يخلد في الآخرة فقط، بل في الدنيا أيضاً، فيصبح مشهوراً، لا لأنه طلب الشهرة بين الناس، بل لأنه كان مشكاة لهم، تهفو نفوسهم إليه؛ لأنهم وجدوا فيه نبراسهم الذي كانوا يبحثون عنه، يستضيئون به.

العاشق بين سعادتين

العاشق بين سعادتين: سعادة اللقاء وسعادة الانتظار؛ إذ يتوحّد العاشقان جوهراً واحداً، وإذا حَكَم الجوهر، أصبح كل شيء جميلاً. فالانتظار من دواعي العَرَض، وهو يدور في فواصل الزمان والمكان، أما الجوهر، فيأبى علينا الألم، بل يحوله إلى شعور جميل. زمن انتظار لقاء الحبيب، سعادة. والإنسان متردد بين الخوف من الفقد، والأمل في الحضور، فتراه لا يستمتع بما هو آين؛ ولذلك فإن أسعد اللحظات هي التي تلك التي يعيشها مع الحبيب، غير آبه بما قبلها أو بعدها. وعندما يكون الحب من جهة الجوهر، فإن اللقاء والغياب سيَّان: لأنّ العشق والوجود سيَّان.

وليس ثمة أجمل من أن يواسي المحبُّ محبوبه في حالات الحزن والمرض والخوف، ولعل سعادته حينها لا تقارن بسعادته في حالات فرحه واستقراره. وما أجمل المرض في هذه الحالة! لأن المحبَ وحده هو الذي لا يملُّ الجلوس مع محبوبه، وهو إن لم يستطع فإنه يقف في العتبة، يرمقه، ويتسمّع أخباره، ويتمنى أن يتخلى عنه الآخرون، ليبقى هو وحده إلى جانبه، يعوّضُه عنهم بالحنان والحب والعناية والرّعاية، وإن لم يستطع ذلك، فإنه سيمرض هو نفسه، بل يتمنى أن يكون

مريضاً بدلاً عن حبيبه، ولكنه، مع هذا، يخشى أن يكون مرضُه عبئاً على حبيبه. إن يد العاشق على جبين حبيبه، تشفيه من كل الأمراض، حينها ينفض المحبوب المرض عنه، فرحاً بلقاء حبيبه.

إنّ العاشق ليشعر بأن سعادته في إرضاء حبيبه وإسعاده؛ لأنه أصبح هو، وما يملك، ملكاً له، وهو بهذا يتنازل عن تفرده، وهذا ما يسميه الآخرون ذلاً، وما هو في الحقيقة إلاّ تجوهر كمال العشق، فتصبح طاعته مصدر لذة وسعادة، وينتظر العاشق عند قدمي حبيبه، ويذهل عن وجوده هو، ويصبح كله متوجهاً إلى معشوقه، يتلمّح ما يريده، ليلبيه له، قبل أن يطلبه.

والعشق هو أعظم تجربة يرقى الإنسان إليها، وبها، وهي الوحيدة التي تنعكس على كل مستويات وجوده، وبسبب من جهل الناس بهذه الحقيقة، أو التباس الأمر عليهم، فإنّهم جعلوا العشق محرماً. وحين يعشق الإنسان فإنه يرى نفسه أعظم إنسان في الوجود، ويشعر بعظمته تلك متجسدة في قدرته على الإبداع والعطاء.

يمكن فهم إباحة الدّمِ بين العاشقين على مستويين: ظاهرٍ، وهو أنّ الناس يبيحون دماء العاشقين، وإنْ مجازاً، وباطنٍ، وهو أن المعشوق

يغار على عاشقه، فإنْ باح بالسرّ، أباحَ دمَه بالبعد والهجر، فيبحث العاشق عن سرّ ذلك فلا يجدْه، وهذا نوع من العتاب غَيرةً عليه.

بالعشق يولد العاشق على الحقيقة، وبه يحيا الحبيب في قلب عاشقه حياة ثانيةً خالدة. لإنسان، هذا المخلوق العظيم الذي لو تأملنا جمال خلقه لبهرنا، إلى حدّ العجز. ومرآة القلب فيه، لا حدود لها، إذ فيه مجلى الله، فكيف لا يتجلى في قلب الحبيب، وهو الذي قاد عاشقه إلى الله؟ عندما يتأمل العاشقُ جمالَ حبيبه فإنه يتأمل فيه الجمال الإلهي، ومعه يذكر الله، وهو أرقى أنواع الذِّكر، شرط أن يكون القلب حاضراً، يذكرُ: (وأشهدهم)، فيرى قلبه مطمئناً بمحبوبه. فنحن عندما نرى الموجودات رؤية قلبيّة، فإنّها تصبح مختلفة اختلافاً كلياً، فندرك تجلي الله فيها عامةً، وفي القلب الذي هو مركز الظاهرِ والباطنِ، خاصّةً.

لماذا يبكي العاشق؟

إنه يبكي خوفاً، وشوقاً، وألماً، وحبّاً: يبكي خوفاً من الحبِّ، لأنّ الحبّ، بالنسبة إليه، حياة جديدة، ومشاعر وأحاسيس كانت غريبة عليه، ما كان قلبه يعرفها، فهو يبكي خوفاً منه، ولكنه أيضاً مع خوفه هذا، يشعر بسعادة بالغة به، وهو أيضاً، يبكي خوفاً من أن يعلم الناس بحبّه، فيمنعونه منه، ويحرمونه إياه، فهو بهذا يبكي خوفاً من الحب، وخوفاً عليه. كما أنه يبكي خوفاً من تلك السعادة التي يمنحه إياها الحب؛ لأنه لا يدري أهو واهمٌ أم أنّه يعيشه حقيقة، فإن كان يعتقد أنه واهم، فإنه يبكي خوفاً من أن كل هذه السعادة إنما هي مجرّد وهم، وإن كان يعتقد أن هذا الحب حقيقة، فإنه يبكي لأنه لا يدري إن كان يستحقّ هذه السعادة. وهو مع كل هذا يبكي خوفاً من خوفه، فهو يخاف إن استمرّ في خوفه من الحب، أن يفقد الحب، فيحرم منه، فالحب هو الأمر الذي يصعب علينا امتلاكه، ويصعب علينا الاحتفاظ به، كما يصعب علينا فقده.

فإذا تجاوز العاشق كل تلك المخاوف واطمأنّ بحبه، وعرف حقيقة مشاعره بمعرفته حقيقة محبوبه، فإنه يبدأ يحنّ، إلى الحبيب، ويشتاق إليه، وقد لا يتمكّن من لقائه، فيبكي ألماً من شوقه الذي يدفعه إلى رؤية الحبيب، مع عدم قدرته على تحقيق ذلك، وقد يحظى

بلقائه، ولكنّه مع ذلك يبكي، وما بكاؤه إلا لعلمه اليقيني أنه في لحظةٍ ما سيفترق عنه، ولهذا فكأنه يريد ألا يلتقي به حتى يظلّ يشتاق إليه، ويأمل باللقاء، فالفراق على أمل اللقاء أفضل من لقاء على خوف الفراق. ولكنه مع كل هذا يرغب باللقاء، وهنا يقع في حيرة، فيبكي ألماً من اشتداد الحيرة، فهو في الوقت ذاته تذوب نفسه شوقاً إلى لقاء حبيبه، ولكنه مع هذا يريد تأجيل اللقاء ما استطاع، وفي الوقت نفسه يريد تعجيله ما استطاع.

وإن حصل اللقاء، فإن العاشق يسعى إلى التوحّد بحبيبه، ولكن هذا لا يتم على الحقيقة، فتراه يبكي ألماً من ذلك، فيبكي شوقاً إليه، مع أنه قريب منه، بل هو ملاصق له، فلا يزيده اللقاء إلا شوقاً وولعاً وألماً.

وقد يبكي العاشق من فَرط العشق، حين يقف أمام حبيبه، وهو مستغرق بألوان جماله وحسنه وبهائه، فكأنه يقول له: أريد أن أقول لك: إني أحبّك، أريد أن أعبر لك عن قوّة وعظمة وجمال تلك الأحاسيس التي تغمر قلبي تجاهك، أريد أن أعبّر عنها بلغة غير لغات الأرض، وبلسان غير ألسنة الناس، أريد أن تعرف حقيقة ما أكنّه لك، أريدك أن تعلم أنها ليست مجرد مشاعر، إنها حياة ووجود؛ أرغب في أن أعبّر لك عن عشقي وشوقي، ولا أدري كيف؟ أرغب

في أن تدرك مكانتك في وجودي، وأنك كنت ذلك المسكن الآمن لروحي التائهة، أرسلك الله هبةً إليّ، لتلدني بحبّك من جديد، فلا أدري ماذا أفعل؟ أأسجد أمام هذا الجمال والجلال الإلهيّين؟ أم ماذا أفعل، لا أدري...!

حينها يتصاعد الشوق، ويتسامى العشق، فلا يجد العاشق نفسه إلا وهو عند قدمي حبيبه، وقد فاضت عيناه بدموع العجز عن التعبير عن الحب، فهو يبكي لا خوفاً ولا شوقاً، وإنما عجزاً، وحباً، وعشقاً.

أما بكاء السعادة، فله طعم آخر عند العشاق، وذلك حين يدخل العاشق مرحلة من الوعي مع الحبيب، فيقول له: أنا الآن معك، وليس معنا من البشر أحدٌ، أنت وأنا فقط، أنت أنت بكل معنى فيك، معي أنا؟! أشعر بفضل الله الكبير علينا، ولا أدري كيف أحمده على ذلك، ما هذا الكرم! يا أنت، يا من بين ذراعيك يفيض الحنان، وفي عينيك يُختصر الجمال، أنت بالقرب مني، وأنت معي وفي داخلي؟ هذه سعادة كبيرة، لا أدري إنْ كنت قادراً على تحمّلها! إنّ بكاء السعادة يأتي من الشعور بأن السعادة التي يشعر بها فوق طاقة التحمّل، إلى درجة أنّ العاشق يتساءل: هل أنا جديرٌ بهذا القدر الكبير من السعادة؟ وهل من الممكن أن أفقدها، أو تزول؟ وهذا ما

يترك شيئاً من الحزن والقلق والخوف، والبكاء، وما البكاء إلاّ ذوبان القلب، فيه غسل له، وتنقية وتطهير.

حين يرتقي الجوهر، ويتجوهر فإنّ اللسان يصبح عبده، وآلته، وعندما يتكلم الجوهر فإنّ اللسان يخجل من أن يتحدث عن رغبات الجسد، ولأنهّ غير قادر على التعبير عما يريده الجوهر فإنّه يلوذ بالصمت.

حينها لا يبقى أمام العاشق المسكين إلاّ البكاء، من شدّة شعوره بالسعادة، وهو في أحضان الأمان والطمأنينة والسعادة مع حبيبه. ويختلط بكاؤه هذا ببكائه إشفاقاً على هذه السعادة، من أن يُحرم منها، فيبكي ألماً كما يبكي سعادة في الوقت ذاته، وما أعجبه من بكاء!

كما أن العاشق يبكي حين يشعر بعجزه عن كتم خوفه من حبيبه، وذلك خشية أن يعرف حبيبه بخوفه، فيتوقف عن حبه ولقائه، ولكن، أنّى له أن يقدر على كتمان خوفه وعشقه عن حبيبه، وهو أعلم الناس به! فيبكي خوفاً من أن يتبين محبوبه خوفه، ويبكي ألماً لعلمه أنه لن يستطيع الكتمان. وما أصدق الشاعر حين قال:

وارحمتا للعاشقين تحمّلوا ستر المحبة، والهوى فضّاحُ

ركبوا على سفن الوفا فدموعهم بحرٌ، وشدة شوقهم مـــلّاحُ.

اللغة من اختراع العقل البشري، وهي في الأصل مجموعة من الاصطلاحات ذات أصول مادية، ولذلك فإنّ ثمة أمور لا تعرف اللغة كيف تعبر عنها؛ لأن اللغة مقيدة، والأفكار مطلقة، ولهذا فإننا أحياناً نلجأ إلى الصمت أو البكاء، حتى لا نسيء إلى اللحظة الجميلة، التي نعيشها، فيذهب جمالها، وحتى نحتفظ بأنفسنا في أفقها العلوي، في انتظار أن ترتقي اللغة لدينا إلى مستوى التعبير عنها. ومن أجمل اللحظات التي تصمت اللغة أمامها لحظة تجلي المحبوب علينا، وفينا. وهي لحظات سرمدية تنتمي إلى عالم الزمان المطلق، لا يشعر الإنسان فيها بجسده، وبما حوله من ماديات، ويغمره شعور بأنه في عالم من النور الحاني، والسعادة اللامتناهية، فلا يريد الخروج منه، والكلام قد يخرجه، لذلك فإن الصمت هو سبيل البقاء في ذلك العالم.

لم يطوف العاشق حول حبيبه؟

إنه يرى فيه ذاته وسعادته، فهو يحب خيره الذي يمده به الحبيب، وحين يتمحور العاشق حوله، فإنه يتمحور، في الوقت عينه، حول ذاته، وهذا ما يجب أن يكون عليه العاشقان، فلا يجد العاشق فرقاً في أن يتمحور حول ذاته أو حول حبيبه، فكلٌ منهما نجمٌ وكوكبٌ، في الوقت نفسه.

كن نجماً وكوكباً، في الوقت نفسه، مستقطِباً ومستقطَباً، فـ "المؤمِنُ يَأْلَفُ ويُؤْلَفُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ ولَا يُؤلَفُ"[1]. فالكون كان، في أصل الوجود، بالمحبة، وهي مرتبطة بالإيمان بالله مصدر المحبة؛ لأن الحب في الأصل هو محبة الله، والحب هو إيمان بالمحبوب، فإذا كنا لا نؤمن بالمحبوب، أي لا نثق به؛ لأننا لا نعرفه، فهذا يعني انتفاء المحبة؛ لأن شرط المحبة الإيمان والثقة. فمن عرف الله وآمن به، وثق بما يأتيه منه، وكذلك المحب، فإنه عندما يعرف حبيبه، فإنه يثق به، ويصدقه؛ لأن الحبّ كالإيمان، يعتمد على معرفة المحبوب. والمحبة هنا على العموم، ويمكن تخصيصها، وهي هنا مضارعة للإيمان؛ لأن إيمان المحب بالمحبوب يقوده إلى الإيمان بالله؛ ولأن الحب مدعاة إلى

---

[1] رواه أحمد والطبراني وإسناده جيد.

معرفة الذات، وعندما يعرف الإنسان حبيبه، فإنه لا يرى فيه إلا مجلى لله؛ لأنه من خلقه، فيقوده ذلك إلى معرفة الله، وما كان هذا إلا بفضل الحب، فإذا حصل ذلك دخل الجنة في الدنيا والآخرة، وجنة المحبين في الدنيا ما ينعكس في قلوبهم من السعادة والاطمئنان والرضى والسكينة والامتنان.

الحب هو محور الوجود، ومن لا يحب، لا وجود له. ويحتاج الشباب إلى الحبّ، ولكنهم لا يستطيعون عيشه، فتصيبهم الحيرة بين حاجاتهم المادية الجسديّة، وبين وجودهم الروحي، ويشغلهم المجتمع بأمور أخرى، فيجد الشابّ، نتيجة ذلك، نفسه غريباً عن كل ذلك، وعندما يصبح في الخمسين من عمره، ويسمع بشابٍّ يبحث عن الحب، يقول له: "الحياة ليس فيها حب"؛ لأنه لم يعشه يوماً ما.

من أكبر عيوب الناس أنهم يتسولون المال ومتاع الدنيا، وهم في ذلك يبذلون المهج والأرواح، ولا يعدّونه عيباً، أما عندما يتسول الإنسان المحبة، ويطلب لقاء الحبيب، فإن الجميع يجمع على لومه، وعذله والتشنيع عليه، مع أنّه لا يوجد أجمل من الحياة التي يزينها الحب، بل ليس ثمّة حياة من غير معرفة الذات معرفة قائمة على الحب؛ إذ حينها فقط يمكن أن يُعدّ الإنسانُ إنساناً.

محبّة الله أصل الحب، وما الشوق إلاّ حركة النفس إلى بارئها سبحانه، صدرت عنه بالنفخة الأولى. وأيُّ حبٍّ بعده لعياله جميعاً إنّما هو منبثق عن تلك المحبة الأولى، وما غاية هذه المحبة إن لم تكن متجلية في محبة عياله، وتقديم الخير لهم. فما ثمّة محبة أجمل من تلك المحبة، التي يرضى الله عنها، ويباركها سبحانه. إنّ النفس عندما أصبحت في حاملها الترابي، الجسد، أصبحت تميل إلى ما يميل إليه جسدها من محبة المحسوسات والصور الجميلة التي تذكرها بخاصّ ما لها من الجمال الأزليّ، ولا بدّ لها من ذلك، فكانت محبة العباد تمكّن النفس من الانتقال من محبة الصور إلى محبة جواهرها، في طريق تساميها إلى المحبة الأولى، وكأن النفس كالطفل الذي لا يستطيع جمع الأرقام مجردة عن مصورات لها ماديّة، في أوّل تعلمه الحساب، حتى إذا ما استطاع تجريد الأرقام من مصوراتها، كان قادراً على الحساب. فلا بأس في أن يرى العاشق في محبوبه مجلى لله عز وجل، فيحبّ صورته، ثم يجرد فيه الجوهر فيحبّه، ليس لذاته، وإنما لكونه مجلى لله سبحانه وحده. ثم إذا ما ارتقت نفسه، وأدركت ما لها من الأمور الخاصة الشريفة، تركت الصور والجواهر المذكرة لها بالمصور الأول وتعلقت به، مصدر الجمالات كلها، الذي لا تتوجّه القلوب العاشقة إلاّ إليه أولاً وآخراً. فسبحان الله.

الحبّ حركة، وكل حركة إنما تبدأ من ذاتها، أو من محرك خارجي عنها. وحركة الحب تصدر عن محركين: الجسد والنفس، فإذا كان الحب حركة للجسد، كان شهوة، واشتهاء، يدفع الجسد إليه بقوته الشهوية، التي بها بقاؤه ودوام نوعه، أمّا إذا كانت المحرك داخلياً، هو الجوهر أو النفس، فإنّ الحبّ يكون حركة للنفس بقوة الشوق إلى ما فيه كمالها وتجوهرها. وإذا كانت الحركة الأولى ضرورية لبقاء العرض حامل الجوهر، فإن الحركة الثانية عليها المعوّل في تحقق الغاية التي خلق من أجلها الإنسان: العبودية والاستخلاف. فإذا ما انفردت الحركة الأولى، وخرجت عما هي له في أصل التكوين، وإنما يكون ذلك بنسبة غياب الحركة الثانية، وابتعاد الإنسان عن تذكر ما أشهد عليه، في عالم الذر من العبودية إزاء الربوبية، فإنّ هلاك الإنسان محتوم، ويكون هو الجاني على نفسه، وسبب خسارته في الدنيا والآخرة.

هل يمكن أن تتحد الحركتان؟

حركة الإنسان في الحياة مدفوعة بإرادة الحبّ، وكل حركة لا تصدر عن هذه الإرادة هي شر مطلق، على صاحبها، وعلى كل من حوله، بحسب ابتعادها عن تلك الإرادة. وعلى ذلك فإنّ الحب هو منطلق وغاية كل عمل ابن آدم، وهو بذلك على حقيقة عالم الزمان المطلق، حيث كان الحب قوام الإرادة الإلهية في خلق الكون والإنسان، فكان المحبة دافعاً وغاية: دافعاً للإبداع والخلق، وغاية يعمل الإنسان على الوصول إليها في أثناء تحقيقه وظيفته في العبودية والاستخلاف، وهذ ما ينص عليه جوهر العقيدة الإسلامية القائم على نيل السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة.

الحب يجعلك متفرداً

يدرك العاشق قيمة حبيبه الذي يمكن أن يدخل إلى حياته البهجة والسرور؛ لأنه يعرف أنه يعامله بصدق وصراحة ومحبة وإخلاص، فهو يعامله لذاته، ويحبه لجوهره، وليس لغاية أخرى، ولعل ندرة هذا الأمر هي التي جعلته جميلاً؛ إذ لو توفرت هذه الصفات في كل الناس لما وُجد التميّز والجمال، الخاصّين بالعاشق وحبيبه.

والحبّ يمكّن الإنسان من استعادة حريته المسلوبة من الآخرين، والمجتمع، والمقصود هي الحرية الداخلية، فيقول العاشق لمحبوبه ما يشاء، ويفعل معه ما يحب؛ لأنه يريد أن يعيش كما هو، وإنْ لأوقات قليلة، وهذا غريب على معظم الناس، الذين لا يدركون هذا لعيشهم في المقيَّد والمقيِّد.

إنّ قوة الحب تنبت للإنسان أجنحةً، تجعله يتحرر من قيود العالم، ويصنع المعجزات، ويعود ليصبح مبدعاً، فيحقق الإرادة الإلهية التي جعلته خليفة، فيتحرر من عجزه وجبنه، وهو ما يساعده الحب فيه فيجعله مليئاً بالعطاء، والحنان، والمشاعر النبيلة الصادقة، إنه يحيي فيه إنسانيته، ومعنى استخلافه، ويحرره من العبودية.

العشق والوجود

خلق الإنسان لأداء وظيفة، فإذا لم يستطع أن يعرفها فلا قيمة لوجوده، ولا معنى، ولعل أهم ما يحدد الرسالة، ويحقق الوجود هو العشق؛ لأنه يساعد على اكتشاف الذّات، وصقلها، وجوهرتها، وهو العشق المتوجه إلى الخير والفك ولمفردات الكون وللإنسان.

يتوه الناس في حياتهم لفقدانهم العشق، فيبحثون عنه بالتعلق بالجمال؛ وذلك لأن العشق كامن فيهم، فهم يشعرون به في لا وعيهم، ولو وعوه لكان الأمر أعظم وأعمق، حينها تكون كل لحظة ذاتَ قيمة، فلا نقول: يا أسفاً للعمر كيف ضاع؛ لأن العمر يضيع عند من لا يدرك قيمة الوجود.

ولا يكون التوحّد إلاّ بين متجانسين، ولا يمكن أن يكون بين متنافرين. والعشق بحثٌ عن الخير والكمال، ولا يمكن للعاشق أن يكون عاشقاً، إلا إذا عرف ذاته، ليبدأ بعدها بالبحث، بعد أن أدرك نقصه، إذ إنّ العشق هو سعي النقص إلى الكمال. ولا بدّ له من أن يعرف ذاته أولاً، حتى يعرف الذات الشقيقة لذاته. فإذا صدر الإنسان، في عشقه، عن الذات وحدها، فلن تكون ثمة أخطاء أبداً، ولكن السؤال هو: ما مدى قدرة الإنسان على معرفة الحدود بين الذات والجسد؟ وكيف يمكن للأولى أن تتحكم بالثاني؟

يعيش العاشق في غربة؛ لأنه لا يجد شكله الذي يبحث عنه، والناس لا يفهمونه، لذلك يخفي عنهم عالمه؛ لأنه يشعر أنه غير مفهوم لديهم، وإذا عرف الناس عنه العشق بحالاته المختلفة فلن يحتملوه، ولن يساعدوه على كفكفة دموعه، وكلما زاد هذا، زاد شعوره بالغربة، لذلك نرى العاشق يأنس بالوحدة وبالطبيعة والسهول والبراري، والجبال والوديان؛ لأنه يشعر أنه ليس غريباً فيها، فيشكو همّه للطيور، ويخاطب البلابل، والحمام؛ لأنه لا يجد بين الناس قلباً يخفق كقلبه.

كم الإنسان بائس حين يُظلَم وحين يَظلِم! ويا سعد من وجد قلباً يحتمي به، ويلجأ إليه من حر الوحدة والغربة، ويعوذ به من ظلم الآخرين، وغدرهم، وبأسهم، يجد لديه السكينة، والسعادة، والهناء، ويوفر له كل ما يمكن للوجود أن يملك من معنى، يجد فيه صدراً يستطيع أن يسند رأسه عليه بأمان، وهو مطمئنّ بأنه لن ينقلب عليه يوماً ما؛ لأن أقسى معاناة يعيشها المحب إنما هي تغيّر الحبيب؛ فالألم الناتج عن ذلك أكبر ألم. والإنسان الحكيم، إذا أحبّ، فإن عليه أن يتمهل في إظهار محبته، وأن يترك حيزاً للتغيّر الذي يمكن أن يحصل لدى الحبيب.

إذا خلت حياة الإنسان من الحب فسيصبح يومه كأمسه، وغده كيومه، وبسبب هذا يكون الخوف من الغد؛ لأن الغد لا جديد فيه.

إنّ العلاقات بين الناس، تتحدد بشكل محدّد، أما العلاقة بين العاشقين فلا شيء يحدّها، فقد يخفي الإنسان عمّن حوله كثيراً من الأمور والأسرار، ولكنه لا يخفي شيئاً عن حبيبه الحق، وليس المتوهم.

إنّ تحقيق الطموحات مرتبط بالزمان، وليس بإرادتنا فقط، فالأفكار وحدها لا تكفي، وإنما عليها أن تتحوّل إلى التجلي في السلوك والتطبيق في الواقع، حينها يصبح الإنسان محبوباً من جميع الناس، وخاصة بالنسبة إلى شخص واحد شكل هو وإياه ثنائية تكاملية رائعة، هو الحبيب.

العشق الحقيقي ليس لغدٍ أو بعد غد، هو للحياة بأكملها، وهو لما بعد الحياة، لذلك على العاشق أن يوفّر شيئاً من طاقة الحب ليستهلك منها على مدى حياته، ولعل أقرب مثال على ذلك هو سباق الماراتون، فمن وضع كل طاقته في البداية، سيقع في المنتصف، ولن يستطيع المتابعة.

وفيما يتعلق بالحياة، فلأنك تعيش اليوم، ولا تدري ماذا يحصل غداً، فعش اليوم على أنه آخر يوم في حياتك، حينها ستجد

أن الأفكار تتولّد وتتجدّد، ولعل سبب تأجيل المشاعر والمشاريع المهمة، هو أن الإنسان، دائماً، يأمل بالغد، فيظل يؤجّل ويؤجّل، حتى يدركه الموت، فيندم، ولات ساعة مندم!

إذا أردت حباً دائماً فاربطه بالمطلق، فالحب في الله هو العلاقة الوحيدة التي تدوم بين الناس/ وتظل مصدر سعادة، في الدنيا والآخرة. وبما أن أغلب الناس يعيشون بأجسادهم، فإن علاقاتهم في الأغلب الأعم، قائمة على أساس متغيّر وغير ثابت، وهو الحاجات الجسدية، ومتعلقاتها الآنيّة والمتغيرة على الدوام. أما إذا كانت هذه العلاقات قائمة على أساس ثابت (الذات)، فإن أبسط الأمور التي يمكن أن تجري بين المتحابين، تصبح مختلفة، فترتدي حلة ذات معان عظيمة جداً، وذات أثر كبير في الذات، ويصبح جانب الذات مكتملاً بالجانب جسدي؛ ويصبح الجانب الجسدي في خدمة الذات، لأن الدافع هنا هو الذات العاشقة، فهي قد تفرّدت به من دون الجسد. وهذا قليل بين الناس.

الحب والقداسة

في مفهوم الحب نجد التوحّد وليس القداسة؛ لأننا لو أضفنا إلى الحب صفة القداسة لانتفى التوحد، والمحبة المقترنة بالتوحد أرقى من المحبة المقترنة بالتقديس. ولكننا قد نجد شيئاً من القداسة بين العاشقين، وذلك فيما يتعلق بالعَرَض، وكأن العاشق يقول لحبيبه: "إن من حظي العظيم أني أحبك وأنك تحبني؛ لأنك مجلى الله بالنسبة إلي"، وبهذا المعنى يضفي المحبُّ، على كل شيء يتعلق بالحبيب، شيئاً من القداسة، فتصبح العلاقة بينهما علاقة تكامل، وتلك مرحلة لا يصل إليها إلا من أدرك أن كماله في حبيبه، الذي هو مرآته، يرى فيه ذاته، وهو إلى هذا مجلى لله، وهو في الأصل هكذا قبل أن يدخل في إطار العشق، ولكن العاشق يكتشف ذلك، ولا يمكن له أن يصل إلى هذا الاكتشاف إلا إذا كان يعرف ذاته على الحقيقة، وكلما ارتقى العاشق في معرفة حبيبه، ارتقى عشقه له، وارتقت معرفته بذاته وبحبيبه، وعندها تهذّب الشهوة، وإن عانقه أو قبّله، فلا يكون ذلك بشهوة، بل حتى وإن حصل وصال بينهما، فيكون عوناً على تحقيق التوحد المنطلق من عشق الذات، وليس بدافع من شهوة الجسد. حينها تكون العلاقة بينهما علاقة قدسية ورفيعة وسامية دائماً.

الجمال والعشق، والحياة

يرتبط الجمال بالمطلق، أما الجميل فمرتبط بالمقيّد، وبما يليق به من وهم وخيال، لذلك فإن الجمال دائم أزليّ لارتباطه بالحقيقة، على حين أنّ الجميل مؤقّتٌ وزائل.

والجمال صفةٌ تنسب إلى الحقيقة، كالذات في الجسد البشري، أما الموضوع الجميل، فقيمته من أنه حامل لهذا الجمال، وهو من عناصر ماديّة، إذا ما زالت صفة الجمال منها، تفكّكت، وانحلّت، وعادت إلى عالم الوهم، لأنها لولا الجمال ما كانت، فإنها إنما كانت، لتكون حاملة للجمال. وهذا الأمر شبيه بالذات في الجسد البشري الذي لم يكن إلاّ ليكون حاملاً للذات، وجماله مستمدّ من جمالها، وهي تنتمي كالجمال إلى عالم الحقيقة.

يكتسب الموضوع الجميل صفة الوجود، من اشتماله على الجمال، وعندما تخرج منه صفة الجمال يعود عدماً. فالموضوع الجميل عدمٌ بالقوّة حين يكون موجوداً، ويكتسب هذه الحالة لوجود الجمال فيه، وعندما يعرى عن صفة الجمال، فإنه يعود وهماً بالفعل، لتفكّك عناصره الأولى، وعودتها تراباً، ويصبح غير موجود إلا في عالم الوهم. وهو لمجاورته الحقيقة بالفعل، أصبح عدماً بالقوة، لكننا لا يمكن أن نقول أبداً إنه حقيقة بالفعل. كما أن الجمال قبل أن يكون في عالم

الـوهم، كـان حقيقـة بالقـوة، ولا يمكـن أن يصـبح حقيقـة بالفعـل إلا عندما يجاور وهماً بالقوة.

وإذا عرفنـا أن الجسـد الإنسـاني هـو موضـوع جميـل، فيـه جمـال خاصّ به، رأينا أنّ ما قلناه عن الحقيقة والجمال والجميل ينطبق على الجسد الإنساني، إلا أنّنا عندما نتذكّر أنّ الجسد الإنساني فيه الذات/ الجوهر، وهي منتمية إلى الجمال الإلهي المطلق، عرفنا أن الإنسان فيه جمالان: جمال الذات، وهو خاصّ به، وجمال الجسد، وهو مشترك بينه وبين باقي المخلوقات. ومن هنا فاق الجمال الإنسانيّ كل الجمالات، وكان أقدر أنواع الجمال على مساعدة الإنسان العاشق في الوصول إلى الله، لأنه يرى فيه مجلى للصفات الإلهية ومجلى للذات الإلهية، على حين أن باقي المخلوقات لا يرى فيها إلا فيض جمال الصفات.

لا بـد مـن العـودة والـربط بـين مـا تقـدّم والحقيقـة فنقـول: إنّ للإنسان وجودين: حقيقة ووهم في وقت واحد، فقد اختلطت ذاته المنتمية إلى الحقيقـة بجسـده المنتمـي إلى الـوهم بالقـوة، فـإذا مـا عـاش الإنسـان بذاتـه كـان موجـوداً بالحقيقـة، أمـا إذا لم يفعـل، ولم يعـش إلا بجسده، فإنّه يكون موجوداً بالوهم بالقوة، وهو بذلك أسوأ من باقي المخلوقات الموجودة بالوهم بالقوة. وبهذا يفترق الإنسان عما قلناه آنفاً بأنـه لا يكـون موجـوداً بالـوهم بالقـوة كبـاقي الموجـودات عنـد انفصـاله عن ذاته بدليل قوله تعالى: "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا".

جمال الزمان

لو أن حياة الإنسان، في عالم الممكن، كانت سرمديةً، لكانت اللحظة الراهنة من غير قيمة؛ لأنه يعرف أن هذه اللحظة إذا ذهبت فسيحل محلها غيرها، وسيعرف أن بإمكانه أن يفعل في الغد ما يريد فعله اليوم، فلا يقدّر جمال اللحظة الراهنة، لأنه يشعر أن لديه دائماً متّسعاً من الوقت. ومصداق هذا الكلام مثلاً أن معظم الناس في مدينة حلب لم يقوموا بزيارة قلعتها لأنهم يقولون: "لا بأس، عندما يكون هناك متسع من الوقت سنزورها، وهي لن تغادر مكانها". وتمر الأيام، ويموت هؤلاء، وتبقى القلعة، ولم يتمكنوا من زيارتها. هذا، والإنسان يعرف أنه سيموت، والحال أعظم حين يعرف أنه لن يموت، عندها لن يشعر بجمال الحاضر وجمال الخوف من فقدان اللحظة. أما عندما يعرف أنه سيموت فإن اللحظة الراهنة تملك قيمة كبيرة وجمالاً عظيماً مُستمدّاً من شعور صاحبها بأنها جزء من عمره، يقربه ذهابها من النهاية المحتومة التي لا يعرف أين ستكون ومتى ستكون.

ولعلّ الشعور بجمال اللحظة الراهنة الناتجة عن الشعور بالموت، إنما يتضاعف مرات ومرات عندما يكون المرء عاشقاً ومعشوقاً في الوقت ذاته. فاللحظة الراهنة في هذه الحال تملك عنده

جمالين، كما أنها تولّد لديه خوفين، الخوف الأول شعوره بأن هذه اللحظة ستفنى، وبفنائها سيقترب من الموت، فهو يخاف عليها من خوفه على نفسه، وهو في الوقت نفسه يخاف على المحبوب، وبذلك يكون لديه خوفان من الموت، الأول يتعلق به هو؛ لأنه خوف خاص به، وهو الألم المترتب على فقدان الحياة، ولعل هذا الخوف يتضاعف بالخوف الثاني وهو الخوف المتعلق بالمحبوب، فهو يخاف على المحبوب من أن يتألم عند موته، ومن فقده له.

أما جمال اللحظة الراهنة فهو جمالان أيضاً، الأول يأتي من أن هذه اللحظة خاصة به يعيشها ويستمتع بها بكل أبعادها وعلى كل مستوياتها؛ لأنه يدرك أنها ستذهب وأن حياته ستتوقف، ولن يتمكن من التمتع باللحظات التي سيستمر الآخرون، بعده، بالتّمتع بها. ولكن هذا الجمال يكتسب بعداً أعمق بل يتجوهر بجمال آخر يتعلق بالمحبوب؛ إذ إن وجود المحبوب يغني اللحظة الراهنة عند المحب، ويجعلها أجمل وأعمق، مما يزيده تعلقاً بها، وعلى هذا فإن الوجود الإنساني يغتني بالموت لأنه هو الذي يدفع إلى إدراك قيمة الحياة، وما يزيد هذا الإدراك جمالاً هو الحب.

عندما يخاف المحب من الموت فإنه يخاف على محبوبه، ولعل الخوف على المحبوب في هذه الحالة أكبر، وهي حالة لا تتجسد إلا عندما يكون الحب حقيقياً، أو عندما يكون ما بين المحب والمحبوب عشقاً عميقاً ربط الذاتين. فهو قد يملك القدرة على تحمل ألم فقدان المحبوب، ولكنه حريص على ألا يتألم محبوبه بفقده هو؛ ولأن المحب يعشق محبوبه، فهو يخشى عليه خشية كبيرة، ولا يحتمل أي ألم يعيشه المحبوب، وهو يحرص على أن يجعله سعيداً، بل لا يريد له، في أي لحظة، أن يعيش غير السعادة، لذلك فهو عندما يشعر أن موته هو سيسبب ألماً كبيراً للمحبوب، فإنه بذلك يزداد ألمه الذاتي لمجرد تصور أن موته هو سيكون مصدر ألم للحبيب. ولعل هذا الخوف يزيد كثيراً على الألم الذي يمكن أن يتحمله هو نتيجة فقدان حبيبه بالموت؛ لأنه يعتقد، نتيجة العشق الكبير بينهما، أنه أولى بتحمل ألم الفراق بالموت، وهو يتصور أنه قادر على تحمله، فهو لهذا لا يريده لمحبوبه؛ لأنه يعرف أن ذلك سيولد لديه ألماً عظيماً، فهو من خوفه على محبوبه لا يريد له أن يتألم بفقده هو.

ولكن هذا لا يعني، على الإطلاق، تمني المحب موت محبوبه، خشية عليه، وإنما هو تفسير لشعور المحب، وبيان حالات النفس

العاشقة، وإظهار للجمال الإنساني وجمال العشق. ولعل العاشق، مع خوفه على الحبيب من أن يتألم لموته هو، فإنه يتمنى في الحقيقة أن يكون موته قبل الحبيب، لأنه بذلك يضمن أنه سيبقى حياً في ذات حبيبه، وفي قلبه، وعلى لسانه، وأنه لن يموت على الحقيقة ما دام حبيبه يذكره ويحن إليه. ولعله بذلك يضمن لنفسه أيضاً أنه لن يتألم لموت حبيبه، فهو عندما يموت قبله يكون قد نجا بنفسه من ذلك الألم الكبير. إلا أن كل هذا ليس إلا مدعاة إلى إدراك جمال اللحظة الراهنة واكتشاف معنى الوجود وجماله، فالإنسان لا يدرك هذا إلا لأن هذا الوجود زائل في يوم من الأيام.

ما الذي يجعل الحياة قيّمة، سوى العشق؟ إنّه العشق، الذي يحوّل صحراء الحياة إلى جنّة وارفة. وما حياة المرء إنْ لم يكن عاشقاً ومعشوقاً؟ وما قيمة اللحظات الراهنة، والآتية، والتي انقضت، إن لم يكن يغني معناها، ويصوغ جمالها العشق؟ إنّ كل اللحظات التي يعيشها الإنسان، سواء ما بقي منها في الذاكرة، أو ما يعيشه في الحاضر، أو يتصور وجوده في المستقبل، لا قيمة لها بحدّ ذاتها؛ إذ إن الإنسان هو الذي يعطيها قيمتها الحقيقية، وهذه القيمة نابعة، إما من العَرَض أو من الجوهر، فإن كانت نابعة من العرض فهي بحسب قيمة

مصدرها، والعرض وحده لا قيمة له، وإما أن تكون نابعة من الجوهر، ولا وجود للجوهر على الحقيقة، إلاّ عندما يكون الإنسان عاشقاً. وعلى هذا فإننا نرى أن الإنسان لا يوجد على الحقيقة إلا بالعشق، وبالعشق وحده يغتني الوجود الإنساني، وبالعشق وحده تصبح اللحظات جميلة، ويصبح للموت قيمة جميلة.

نحن نعلم أن ذات المحب تتحرر، في أثناء النوم، لتلتقي بذات المحبوب، وعند الموت يكون التحرر أكبر، لكن روعة الحياة في أنها تجمع بين المادي والمعنوي، جمال الحياة أنها تجمع بين سعادتي العَرَض والجوهر، هنا ألم وفراق، ولقاء وسعادة، وهناك لقاء دائم، ولا وجود للوعة الفراق وحِدّة الشوق، وهي التي تزيد اللقاء جمالاً. فسرّ جمال الحياة كامن في وجود الثنائيات: الشيء ونقيضه، أما هناك فلا وجود إلا للمطلق، لذلك على الإنسان أن يستمتع بالوجود محولاً كل شيء قبيح إلى مصدر لمعرفة الجميل، وعندها لن يكون هناك شيء قبيح لديه أبداً.

الحب ملاذ آمن

كـل إنسـان بحاجـة إلى مـلاذ آمـن، ومعظـم النـاس يولـدون، ويكـبرون، ويموتـون، وهـم لا يزالـون يشـعرون بهـذه الحاجـة، ولكـنهم ينكرونها؛ لأنهم لا يعرفون في الأساس ماذا ينقصهم. كلٌّ من الذكر والأنثى يشعر بالحاجة إلى ذلك الملاذ، بأشكال مختلفة، وهذا ما يزال قائماً منذ الأزل، حين حصل الانفصال، فالطفل يحن إلى أمه؛ لأنه في الأساس انفصل عنها، فيذكرها في لا وعيه، والأم تشعر بحاجتها إلى طفلها والمسؤولية عنه؛ لأنه كان منها، ثم ابتعد عنها، والصورة نفسها كانت في الولادة الأولى، أي في صدور المرأة عن الرجل، كما في صدور الإنسان عن الله في النفخة الأولى، وصدور الرجل عن المرأة بولادته منها. فكل موجود يحنُّ إلى الجهة التي صدر عنها، فالله سبحانه وتعالى يرعى الإنسان بالربوبية، والرجل يهتم بالمرأة بالقوامة، وهي تهتم بالولد بالحنان والمحبة، وهي باهتمامها بالرجل ترى نفسها منفعلاً، وباهتمامها بولدها ترى نفسها فاعلاً. وبذلك يكون شعور العاشقين شعوراً بالرغبة في العودة إلى الملاذ، إلى مكان يعرفونه ويحنّون إليه.

والرجل منفعل؛ لأنه صدر، في أصل وجوده، عن الله، وصدر عن المرأة، في العالم المقيّد، فهو منفعلٌ من ناحيتين، والمرأة في هذه

الحالة، تكون فاعلاً بالنسبة إلى الرجل في ولادته، ومنفعلةً في صدورها عنه، في أصل التكوين. والعودة إلى الأصل، لا تكون إلا بالعشق، حينها تسقط فكرة الفاعل والمنفعل، فالفاعل هو نفسه منفعل، وفي الأصل كان هكذا، ولولا الانفصال لما كان هناك فاعل ومنفعل، فالانفصال سبب الإنسانية والبشرية. والعشق هو عودة الاتحاد بين المنفصلين، فكل منهما فاعل ومنفعل، فالمرأة فاعلة من جهة الرجل ومن جهة الولد، وهي منفعلةٌ من جهة الرجل ومن جهة الولد أيضاً؛ لأن الولد يؤثر فيها، فتحن إليه. والرجل كذلك فاعلٌ ومنفعلٌ بالنسبة إلى المرأة، وهو منفعل فقط، بالنسبة إلى الله.

ضفاف العشق

يأبى العشق، مهما حاول العاشق إخفاءه، إلا الظهور في زلات لسانه، وفي ومضات عينيه، لأن الذات هي التي تشرق. فمكان العشق هو الذات، والعين مرآة الذات، والوجه صفحتها، ولعل في هذا مضارعة بينهما، أي الذات والعين، فالذات مجردة شفافة، وهي ليست مادية؛ إذ لا جسم لها ولا أبعاد، ولعل أكثر عضو من الأعضاء ملاءمة لها هو العين؛ لأنها أرق الأعضاء وألطفها، فهي شفافة حساسة. من هنا يأتي التواصل بين الذات والعين. ولذا، فقد كانت العين مرآة الذات، فلا تستطيع إلا أن تكشف شوق الذات إلى الحبيب. ولا بد للمحبّ من أن يتنّبه إلى هذا الأمر، حتى لا يرى الناس حبيبه في عينيه، ولا بد لهذا من الدربة والفطنة، وإلا فإنّ سره مباح، مفضوح.

أما زلات اللسان فإنها أقل من ومضات العين؛ لأن العاشق يستطيع ألا يتكلم، وإن كان بطبعه يميل إلى الكلام، أما العين فظاهرة للعيان، وإنْ سكت اللسان، فيرى الناس محبوبه في نظراته، وفي حركات العين ورمشها، وفي صفائها أو غباشها، ورقرقة الدمع فيها،

وفي التعبير الذي ترسمه في نظراتها، إذا ما ذكر أمامه اسم حبيبه، فهي قادرة على أن تفضح كل ما في النفس، من عواطف ومشاعر، من غير كلام. والناس قادرون دائماً على ملاحظة هذه الأشياء والإحساس بها، فهم ليسوا أغبياء، مع أن تحقق ذواتهم نادر وقليل، فنسبة عمل ذواتهم قليلة بالمقارنة مع عمل العَرَض، والذّات عندهم تظهر من حين إلى آخر، وهم لا يفهمون هذه الأمور إلا بها، وإن كانوا لا يدركونها على الحقيقة إلا بقدر تجلي ذواتهم.

العشق الإلهي

ثمّة علاقة جدلية بين الوجودين: الإلهي والإنساني، إلا أن هذه العلاقة تبدأ من واجب الوجود نحو ممكن الوجود، فيها دعوة إلى العشق والتسامي والصعود، وتتجلى بالفيض الإلهي، والعلم اللّدني الذي يفيض الله به على الإنسان، كما تتجلى بالجمال الكلّيّ الذي ما هو إلا نور قدسي يشعُّ عن الذات الأولى، تتلقاه الموجودات طُرّاً، كلٌّ منها بحسب نسبته من الوجود. وأول ما يتلقاه من الموجودات هي النفوس الإنسانية؛ لأنها، وحدها، قادرة على تحويل هذا الفيض إلى طاقة خلاّقة، تستخدمها في تحقيق الاستخلاف والعبودية، وهي تتجلى في صعود متسامٍ نحو الله، يُطلق عليه اسم: المحبة، التي تقود إلى العشق. فالفيض النازل من الله، يقابله عشق صاعدٌ متسامٍ، من الإنسان، الذي يصبح بين هذا النزول وذلك الصعود، بين الإرسال والتلقي، وبين الفيض والعشق. فإذا ما تمكّن من هذا، حقّق وجوده الأرضي على حقيقته، وتمكّن من أن يقترب من واجب الوجود؛ لأنه كذلك في أصل نشأته، فإذا ما أحسن العشق، تقبل هذا الفيض، وأصبح إنساناً إلهياً، تُكشف عنه الحجب، فيصبح الله تعالى عينه، ويده، وأذنه، كما جاء في الحديث القدسي.

إن الذي يعيش هذا في حياته في هذا العالم، يمكنه أن يكون هو صاحب الفيض، أي يمكنه أن يكون مرسلاً للنور الذي تلقاه من الذات الكلية، واكتشفه في ذاته، فيصبح هو مصدراً لهذا النور، يستقبله حبيبه منه، وكلّ من يلتقي به، فيكتشف في ذاته النور الإلهي الأوّل الأزليّ، ويسعى به ليرقى إلى العالم المطلق، ويتمكن بمعونة العاشق من تحقيق العشق المتجه نحو واجب الوجود، فيكون العشق بين العاشقين مرتقىً إلى العشق الإلهي؛ لأنّ كلَّ ذات عارفة تصبح مصدر فيض، تعشقه الذوات الأخرى؛ لأنها تتلقى الفيض منه، وهو ما يساعدها على اكتشاف الكليّة في ذاتها، فتتعلق بالمحبة والعشق، لترقى إليها فتكون بدورها مصدر فيض تتلقاه ذات أخرى، عارفة بالقوة، تفعل الشيء نفسه، فإذا ما تحقق هذا تحققت في الأرض إرادة الله، التي يمثلها قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:105].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11]

العشق والتوحيد

إنّ كلمة التوحيد: (أشهد أنْ لا إله إلا الله)، إقرار من جهة قائلها بنفي الشرك والكفر، فهي لا تأتي إلا بعد أن يكون الإنسان قد ابتعد عن التوحيد الأوّل، عندما كان في عالم الذّرّ، وأُشهد على نفسه. ولكن الإنسان ابتعد عن هذا العالم، ونسي عبوديته لله، ووحدانية الله عز وجل، والعهد الذي شهده على نفسه، فأقرّ بتعدد الآلهة وأشرك بالله، فجاءت النبوات لتذكره بعهده الأول، فكانت (لا إله إلا الله)، وكأنّ الإنسان حين يرددها يريد أن يثبّت ما في ذاته من الشهادة الأولى، والتوحيد الأول، ولو أنه ظلّ على ما كان عليه من التوحيد، لما اضطرّ إلى إقرار الشهادة بالوحدانيّة من جديد؛ لأنه ما نفاها أصلاً حتى يقرّها، أو هو يرددها ليثبت معناها في نفسه على الحقيقة، ويحولها إلى منظم للسلوك اليومي في الحياة.

كذلك حال العاشق مع معشوقه، فلو أنه كان ما يزال معه، وجزءاً منه لا ينفصل، لما اشتاق إليه، وما سعى إلى لقائه والنظر إليه، ولما كان يشتاق إليه، ويسعى إلى لقائه، فقد دلّ ذلك على انفصاله عنه، وهو إقرار بالحجاب بينه وبين ذات الحبيب، ولو أنهما التقيا، وعادا فامتزجا، لسقط الحجاب، وبطل الشوق، فلا يسعى العاشق إلى لقاء حبيبه ورؤيته، وكيف يفعل ذلك وهو معه وفيه؟ وهذا لا يجوز

إلا بحق الذات الإلهية، أما المحبة والعشق بين الناس فإنّ هذا غير ممكن التحقق، في عالم الدنيا، فانتفاء الشوق بينهم غير متحقق في هذا العالم، لوجود الحجاب الذي هو الجسد، فلا يكون الاتصال إلا بسقوط هذا الحجاب، وهو لا يكون إلاّ بالموت الحسي الجسدي، أو بالموت المعنوي.

ويمكن لهذه الحال أن تتضح في العلاقة بين الإنسان والله تعالى، وعندما نقيس على ذلك الحال بين الرجل وزوجه، فإننا نجد أن الوضع شبيه بالحالة الأولى، فإذا كانت ذات الإنسان من النفخة الإلهية، وهي تحنُّ إليها، وتحجبها الحجب عنها، فإنّ ذات المرأة من ذات الرجل، تحنُّ إليها، وتحجبها الحجب عنها، فيشتاق الزوج إلى زوجه، كما يشتاق الإنسان إلى خالقه، وتحجبهما حجب الجسد، فلا يتمكنان من اللقاء على الحقيقة إلا كما تتمكن ذات الإنسان من الحضور مع ذات الله عز وجل، ويكون ذلك كما في المرة الأولى، إما بالموت الحسي، وإما، كما يقول ابن الدباغ، في حالة الحياة، عند الانسلاخ عن قوى الأبدان، والتجرد بالكلية، وهو نادر وصعب التحقّق.

كلٌّ من العاشقين باب للمطلق، وعندما يعانق أحدهما الآخر فإنّ باب المطلق يفتح، عندها لا يملّ كلٌّ منهما من عناق الآخر، فلا يريد الانفصال عنه، لأنه يشعر أنه يدخل في عالم من الجمال

والسكينة والضياء، والرّاحة والجمال والسّعادة، هو عالم المطلق، فيغيب في حالة من عدم الشعور بالجسد، وقد تخور قواه ويتهاوى جسده، ويحتاج من يحميه من السقوط أرضاً، وكأنّ عيش المطلق يلغي الوجود المقيد، فتنسى الذّات الجسد الذي به قوامها في هذا الوجود، وتفسير ذلك هو أنّ دخول العالم المطلق يقتضي طاقةً عظيمةً، لا قبل للجسد بها، وتملكها الذات وحدها، فيحدث ما يحدث.

كلٌّ من العاشقين مسؤول عن رقيّ الآخر، ومساعدته على معرفة نفسه، فيكون هو معلمه، ومساعده، ومصدر الخير له، فكل منهما يساعد الآخر على معرفة ذاته، فيثير فيه المعرفة اللّدنيّة القائمة فيه منذ الأزل، حتى يكون جديراً بمحبته له، وهنا ندرك معنى الندية والتكافؤ بين العاشقين.

أمّا حبُّ العرض للعرض فهو يقوم على استغلال كل من الطرفين للآخر، وذلك إذا قام الحب على الأنانية، فكل منهما يحب الآخر لأنه يجد عنده ما يريده، ويشتهيه، وإذا لم يتحقق مراده منه، توقف عن محبته، بل قد يتحول ما بينهما إلى كره متبادل، قد يتطور إلى مستويات عالية من الرغبة بالانتقام والتشهير والإساءة. أما في إطار العشق فلا استغلال، بل تكامل في طريق الكمال والسعادة، فكلّ منهما مرآة للآخر، يكملُ به ويكمّله.

الطبيعة وحدها تفهم الحب

لأنها ما تزال في براءتها الأولى التي خلقت عليها، على حين أن الناس نسوا الحبّ لابتعادهم عن الطبيعة الكامنة فيهم، فهم لا يفهمونه، أما الطبيعة فهي تحيّي المحب العاشق؛ لأنها عاشقة مثله، ولا يقدّر قيمة عاشقٍ إلاّ عاشقٌ مثله، لهذا يلجأ العاشقُ إلى الطبيعة، وهو ليس انسحاباً، بل اختباء عن أعين الحاسدين والعذّال من الناس، الذين لا يعرفون معنى الحب، ولا يقدّرون قيمته، وأنسٌ بها، يتذكر في أحضانها ما له من كمالات ونقاوات فيعشق وجوده فيها.

ولعلّ هذا ما يفسر أن الموجودات لم تعد قادرة على تحقيق الانسجام بينها وبين الإنسان، وهي التي ما خلقت إلاّ لهذا؛ فقد نسي الإنسان الله، وما عادت علاقته به قائمة على المحبة، ففقد قدرته على التماهي معها، وهذا ما لا يمكن أن يستعيده إلاّ بالعشق، الذي تعود معه هذه الموجودات إلى خدمته، وليس عليه، حينها، إلاّ أن يأمرها، فتنفّذ فرِحةً، ومبتهجة، لأنها وجدت سيدها العاشق، فتكون سعيدة بتلبية أوامره ورغباته، التي مكّنه الله منها، وهي سعيدة لأنها مسخّرة له. فالطبيعة لا تسجد للعبيد، وإنما تسجد للأحرار، والإنسان لا يتحرر ذاتياً إلا بالعبودية لله، والعشق من أهم سبل التحرر؛ لذلك فإنّ الإنسان يصبح حراً عندما يعشق، فتسجد له الكائنات، وكيف لا تسجد، وقد سجدت له الملائكة من قبل؟

حين يحيا العاشق مع ذاته أو مع الحبيب، فإن شعوره بزمانه المقيد يتوقف، وحين يعود إليه يجد أن الناس قد شاخوا، وهو ما زال في مطلع الشباب، ويجد أنه قد أصبح إنساناً ذا جوهر حكيم، ولو أراد الناس أن يصلوا إلى ما وصل إليه، لاحتاجوا إلى زمان طويل، ولن يستطيعوا؛ لأن الأمر لا يرتبط بالمقيد، والعشق وحده هو الذي يخرج الإنسان من هذا الزمان، حينها تصبح الساعات بلا عقارب، فلا ندري إن كان هناك زمان أم لا، فالساعة من غير عقارب تعمل في الحقيقة، لأن الزمان لا يتوقف بفقدها عقاربها، بل هو يمضي في دورانه، والحركة الداخلية مستمرة، ولكن من غير حركة خارجية ظاهرة. وهذه الحركة ما هي ألاّ حركة الزمان المقيّد، والعشق يلغي الساعات كلها، لأنّ الزمان المقيّد معه يتوقف.

إن وسيلة إدراك العالم الداخلي هي العالم الخارجي، ومن هنا تأتي أهمية تأمل الكون والآفاق؛ لأنّ هذا التأمل هو وسيلة معرفة العالم، والعيش فيه، ولذلك فإن الإنسان عندما يكون مع حبيبه، في الطبيعة، يشعر بعزلة عن العالم المادي بأكمله. ولعلنا لا نجانب الصّواب إذا قلنا: إنّ الإنسان خُلق قبل الكون، لأن الحقيقة أنّ الكون خُلق من أجله، ففي العلم الإلهي، وقبل أن يُخلق شيء، كان الكون مسخراً للإنسان، ولذلك فقد خلق الكون منه، ولأجله، وخلق

هو من الكون، وبهذا انتقلت العناصر الموجودة في الكون نفسها، إلى آدم، الذي يمثل الكون بأكمله، ويرى نفسه فيه، ويرى العالم كلّه في نفسه وجسده.

إنّ اشتياقنا إلى الطبيعة هو في الواقع اشتياق إلى ذواتنا، ولذلك فإننا إذا أردنا معرفة أنفسنا، لجأنا إلى الطبيعة، نستعين بها في تأملنا لها، وشعورنا بالسعادة فيها، فنرى عناصرها في أجسادنا وذواتنا. ألم يق الله عز وجل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فُصِّلَت:53]. وعندما يعرف الإنسان ذاته على الحقيقة، فإنه يستطيع أن يستغني عن الكون؛ لأنه امتلكه بجميع مفرداته، فأصبح فيه، وهنا تكمن روعة الوجود الإنساني. ولا تتم هذه الآلية إلا بالعشق؛ لأن العشق قوة لاكتشاف الكون أولاً، ثم اكتشاف الذات ثانياً، تمهيداً لاكتشاف التجلي الباطن في الذوات الأخرى. والإنسان الذي يحقق هذا، هو إنسان كوني، يسعى إلى كماله اللائق به، ولكنه لا يستطيع الوصول إلى هذه الرتبة، لارتباطه بالعرض، إلاّ أنه بإمكانه أن يقترب منها كثيراً، ويكفي الإنسان أنه يملك طاقة العشق، التي تسوغ الوجود الإنساني، وتعطيه قيمته الجماليّة، الرفيعة والمطلقة. وإلاّ فما قيمة هذا الوجود؟

ومهما بلغ الإنسان في رقي ذاته وتجوهرها، فإنه يظل في هذه الحياة محكوماً بعرضه وحاجاته الطبيعية التي هي جزء من الوجود الإنساني، لا يستطيع أحد إنكارها، أو استنكارها، فهي مشتركة بين بني البشر جميعاً، وتجمعهم بباقي الكائنات الحيّة، إلاّ أنها، من جانب آخر، أمر يذكر بالترابية. فالإنسان مهما عظمت معرفته بنفسه، فإنه لا يستطيع تجاوزها. ولكنّها، من جهة ثانية، تنبّه الإنسان إلى مكانته الرفيعة، التي استطاع أن يطالها بفضل وجود الذات فيه، فالإنسان في هذه الحال يدرك مدى عظمة هذه الذات التي استطاعت أن ترقى، فتكون ملائكية، وهي مجاورة لجسدها الذي يحتاج في أصل نشأته إلى هذه الحاجات. ولكن ذلك، يذكره أيضاً، بأنه لن يتمكن على الإطلاق من أن يكون مَلَكاً ما دام في هذا الجسد؛ لأن مرتبة الملائكيّة، التي، هي من جهة النفخة الإلهيّة فيه، لا تحتاج إلى مثل هذه الحاجات، على حين أنه هو يحتاجها، من جهة بشريته وطينيّته.

وهي في الوقت نفسه تجعله يدرك أنه أرقى من الملائكة بفضل وجودها؛ لأن الملائكة إنما لم تحتج إليها في أصل نشأتها، فهي ليست مخيّرة، وليس بإمكانها أن تخرج على أصل طبيعتها. أما الإنسان فيملك قدرة لا تملكها الملائكة وهي القدرة على التسامي والرقيّ، إلى درجة الملائكيّة من جهة النفخة الإلهيّة، وهذا ما ليس للملائكة.

وقوته هذه إنما تنشأ من أنه يمتلك هذه القدرة وهو في جسده الطبيعي. ولعل الله قد أشاد بخلقه آدم أمام الملائكة، وأمرهم بالسجود له؛ لأنه يعلم أنّ هذا المخلوق يملك ثنائية متعارضة، في أصل وجوده، ولكنه مكّنه من أن يتجاوز هذا التعارض بفضل قوة العشق، التي وضعها فيه، فيصبح الإنسان قادراً على عيش الملائكية في ذاته من غير أن يسفّه حقوق الجسد.

إن ما تقدم مدعاة إلى احترام الجسد، بكل حاجاته وضرورياته الطبيعية، فلا نسخرنَّ من شيء منها، ولا نستهينَنَّ بواحدة منها، بل علينا أن نحترم هذا الجسد، ونمكّنه من كل حاجاته، إذ يكفيه رفعة وسمواً أنه يحمل ذلك الجوهر الإلهي. وسوف يزداد احترامنا وتقديسنا له عندما يتعلق الأمر بجسد الحبيب؛ إذ إن جسده سيصبح مقدساً بالنسبة إلينا، في كل خلية من خلاياه، وفي كل جزء منه، لا لأنه خلق إلهي رائع، يملك القدرة على السمو فحسب، بل لأن الحبيب بضعة من عاشقه، أُخذ منه جسده، كما أخذ منه شطر ذاته، في أصل النشأة، فتصبح خلايا جسد المحبوب امتداداً لخلايا جسد العاشق، يحنُّ بعضها إلى بعض، ويشتاق، فهذا الجسد، أولاً وآخراً، يحمل تلك النفخة الإلهية التي جمعت بين المحبين، كما جمعت العناصر الترابيّة بين جسديهما.

قراءة في ابتسام العاشقين

للابتسامة أثرٌ كبيرٌ في العاشقين، إنها تترك أثراً مادياً نتيجة الأثر المعنوي الذي تحدثه في النفس، لأن الابتسامة هي صورة الذات تنطبع على وجه العاشق، وتنعكس على ذات الحبيب، فيتجلى هذا الانعكاس على وجهه بحمرة الحياء، بل الشعور بالقوة، وتجلي الذات والإحساس بالوجود والقيمة، فكأنه يولد من جديد، وهذا هو العشق.

حين يعشق الإنسان فإنّه يرى ذاته سمكة في محيط حبيبه، وهذا إنّما يعني العودة إلى الأصل؛ إذ إنه، قبل العشق يكون في الزمان المقيّد، الذي هو صحراء الوجود الإنساني، أمّا ماء محيط الحبيب فهو العشق الموجه نحو الحبيب، والدخول فيه بحث عن الذات، وانتقال إلى عالمها الخاصّ بها؛ الزمان المطلق، والخروج منه يعني الموت الداخلي، وليس الجسدي، لذلك فإن الإنسان يضنّ على نفسه من أن يموت؛ لأنه ذاق طعم الوجود على حقيقة.

العرض، والجوهر، والعشق

ما زال الإنسان، وهو جوهر، مرتبطاً بالعرض، ولا يستطيع أن يتحرر منه في هذا العالم إلا بطريقين: موت الجسد، والموت عن الجسد، ولا يكون الثاني إلا بفضل الله، وهو أن تتجوهر الذات، فتملك الجسد، فيصبح بها شفافاً، لا حول له ولا قوة، يأتمر بأوامرها، فتتحرر من سيطرته، لتصبح هي القائد الفاعل، والموجّه الرئيس له.

يختلف قانون الجوهر عن قانون العَرَض، ولذلك لا تجوز معاملة ذلك بقانون هذا، إلاّ أنه من الممكن أن نطبق قوانين الجوهر على العَرَض، ولكن العكس مهلكة للإنسان، ومضيعة؛ إذ يُغيِّب العَرَضُ الجوهرَ، ويهيمن عليه. وما دام الإنسان عَرَضاً، فإن عليه أن يخضع للقوانين العَرَض، التي لها علاقة بالوجود المادي، والمتمثلة بالشرع الإلهي، فالجسد يجوع، ويظمأ، ويبرد، ويحتاج إلى لباس، وتنظيف، واغتسال، وهذه القوانين مرتبطة بالزمان والمكان والظروف والمجتمع.

إنّ العائق بين اتحاد العاشقين هو الجسد وقوانينه، من جهة، وقوانين المجتمع والعادات والتقاليد، من جهة أخرى، إلاّ أنه، عندما يشعر العاشق أن لقاءه بحبيبه، يمكّنه من تحرير ذاته، بمزيد من المعرفة المرتبطة بجلاء المرآة، فإنه يسعى إلى لقائه، فالعاشق يساعد حبيبه على

جـلاء صـورته فيـه؛ لأنـه يريـد أن يـرى نفسـه بصـورة أجمـل وأنقـى، والحبيب كذلك، يفعل الشيء نفسه، فهناك علاقة رقي دائم، وهي علاقـة جدليـة بينهمـا، فكـل منهمـا يرقّـي الآخـر، ويرقـى بـه. إلاّ أن معرفتهما بأن آلتهما في ذلك هي الجسد، الذي لا يستطيعان تجاوزه كلياً، فإنهما يدركان أن عليهما أن يجدا طريقة تمكنهما من الاحتفاظ بكل ما يوفره لقاؤهما من سمو وجمال ورقي ومعرفة، ومزيد من تجوهر الجوهر، بل وتجوهر العَرَض، فيرقى به ليجعله جوهراً، لأن الأدنى يرقى بمجاورة الأعلى، والجسد قادر على ذلك، فهو مهيأ له، عندما خلقه الله في أحسن تقـويم لتلقي الجوهر، وهـو حامله، والجـوهر يبـدو فيـه، ونـراه في وجهـه وعلـى ملامحـه، إلا أن النسـيان والجهـل أديا بـه إلى عبوديـة العَـرَض، ولكـن الجـوهر يتمكـن مـن قيـادة العَـرَض ليجـوهره، وتبـدأ حالـة الإنسـان الكامـل بالظهـور، وهـي حالـة تكـون في الأنبيـاء خاصة، كما يمكن أن تكون في الناس بنسب متفاوتة، بحسب تحقق ذلك فيهم.

فـإذا كـان اللقـاء بـين العاشـقين علـى هـذا المسـتوى فـلا بأس، شرط ألا يكون للقوانين الاجتماعية أثر سلبي فيهما، من جهة عدم تمكين العاشقين من اللقاء، وعندها قد ينتفي ما قد يحصلانه على

البعد من خير، ويكون عليهما الرضا بالقليل، خوفاً من فقد كل شيء، إذا طمعا بالكثير. وكما قلنا، فإن الشوق مدعاة إلى المزيد من المعرفة والبحث، وكأن الذات تقول للعَرَض: "أنت تزعجني، لأنك آلتي ولا تستجيب لي، وأريد التحرر منك، وكلّما عرفت الحبيب أكثر، كنت أقدر على الارتقاء بك"، وعندها يصبح لقاء الحبيب لقاء الجوهر بالجوهر، وإن كان جسد الحبيب غير حاضر. ولكن هذا لا ينفي الشوق الى عناق الحبيب، وهو في الحقيقة ليس كذلك، وإنّما هو شوق الذات إلى الذات، فإذا كان هذا اللقاء بعد شوق كبير، كان لقاءً عظيماً، تدخل فيه الذات في حالة من الوجد بلقاء ذات الحبيب، وقد لا تكون هذه الحالة بالعمق ذاته في حال أن هذا اللقاء يتم في كل يوم، وكأن شدة الشوق تشكل مزيداً من القوة الجاذبة. حينها تتحول قوانين الجسد والمجتمع إلى قوة إيجابية، فلو أنهما التقيا يومياً لما كان هناك حدّة في الشوق والرغبة، ولكنّ الشوق يضعف مع اللقاء، وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية، فسر الإبداع قائم على الشوق، الشوق إلى الله، وإلى الخير، والعدل، وإلى ذات الحبيب، فالشوق في جوهره بحث عن الخير.

يستطيع العاشقان بقوتهما أن يخترقا تلك القوانين، وأن يتجاوزا أعين الرقباء من خلال مزيد من الشوق، وكأنهما يسرقان الزمان، ويعبّان منه عبّاً، وينهلان منه بنهم، ولا يتعدان عنه، إلا وهما في شوق إليه؛ لأنهما لا يشعران أنهما قد ارتويا، فارتواء الذات ليس كارتواء الجسد، كما يقول ابن الرومي:

أعانقها والنَّفسُ بعدُ مشوقة إليها، وهل بعد العناق تداني

وألثم فاها كي تزولَ صبابتي فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان

كأنّ النفسَ ليس يروي غليلَها سوى أن ترى الروحين يلتقيان

فالحنين قائم على الدوام، وإن التقى العاشقان؛ لأن أعين الرقباء تنتظرهم في الخارج، وإن غفلت أعين الرقباء، فإن العزول الحق يفصل بينهما، وهو الجسد، فالذات تحن إلى الامتزاج بالذات والتوحد معها، فهي تسعى وتشتاق، ثم تلتقي، ولكنها لا تتمكن من الامتزاج على الحقيقة، فهي تشعر أنها أقرب ما تكون من ذات الحبيب، حال العناق، ولكنها عاجزة عن الاتحاد به، ومع هذا، فهي لا تريد الانفكاك عنه. وهنا تظهر قوانين الجسد وقوانين المجتمع، التي لا يستطيع إلا أن يخضع العاشق لها، وهو بذلك يعطل إرادة الذات،

وتتدخل عيون الرقباء: "أين كنت؟ وماذا كنت تفعل؟" والذات الحكيمة تدرك أن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك لضرورة الانسجام الاجتماعي، وهذا ما يجعل الإنسان يكتسب حكمة إضافية، ليكون أقدر على التعامل مع قوانين الذات والجسد. وهو ما يزيد، مع الأيام خبرته ومعرفته.

أليست الحياة جميلة؟ ألا يكفي العاشقين أن يلتقيا في أحلامهما، عندما يصعب اللقاء في الزمان والمكان، فيكون اللقاء في جزء من الزمان المطلق؟ وهما في انتظار لحظة اللقاء؟ وكم ستكون لحظة الفراق عظيمة على أمل اللقاء! وكم هو الشعور الناتج عن الاختباء عن أعين الرقباء جميل! ألا يكفي العاشقين أن يدركا الحكمة الإلهية في هذا؟ ويريا الجمال فيها، ليغدو الوجود بأكمله جميلاً، فلا شيء ينغّص عليهما وجودهما.

ما الحياة لولا الحب

من يستطيع عيش حبّ عظيم، قادر على الإبداع في كلّ ما يقوم به، في كل مجالات الحياة، لأنّ الأصل في هذا أن يكون الإنسان قوياً عظيماً في ذاته، وهو عندها، سيحب بعظمة حين يحب، وكذلك الشأن حين يعمل أو يتكلم أو حتى حين يتألم. أما الوضيع، فإنّ كل ما يصدر عنه سيكون على صورته بالضرورة. فالحب في الحقيقة هو مجلى للذات، فعندما تكون هذه الذات كبيرة، يكون تجليها كبيراً في كل المجالات، وأعظم ذلك إنما يكون في الحب، الذي يحرر طاقات الإنسان الدّاخلية، ويطلق قدراته الإبداعيّة.

ما الحياة، لولا الحب؟ إذا خلا الوجود من الحب فلا قيمة له، ولا معنى، والمقصود هنا ذلك الحب الذي هو من متعلقات الذات، فإذا لم توجد الذات على الحقيقة فليس ثمّة حب على الحقيقة، وكل من ادّعي الحبّ من دون تحقق ذلك لديه فهو كاذب. إلاّ أنّ الحب نفسه، عندما يكون كبيراً، فإنه يمكّن الذات عند الطرفين من التجوهر، ويدخل في علاقة متسامية ومتصاعدة مع الذات، يرقى كلٌّ منهما بالآخر، فيصبح الحب عنصراً من عناصر قوة الذات وتجوهرها. ومن هنا كان الحب قوة تمكن صاحبها من معرفة ذاته وجوهرها.

قوى الذات وقوى العرض

قوى العَرَض هي النفوس الثلاثة: الشهوية والغضبية والعقلية، وقوتا الذات هما العشق والمحبة، قوى الجسد تجعله ينمو ويتطور، وتساعده على توفير ما هو ضروري لذلك، والدفاع عما حصله منها من ألاّ يسلب منه، ومصدر الطاقة الذي يمد الجسد بتلك القوى هو الرّوح الحيوانية فيه، ومحركته. أمّا قوتا الذات، فإنّ مصدرا الطاقة اللذان يمدّانها بالحركة فهما: الذّات الكليّة، والزمان المطلق، لأنهما عالمها ومصدر صدورها. ونجد بين الجسد والذات توازناً وتكاملاً، فكل منهما بحاجة إلى الآخر، ولكن الأصل هو الذات، والعشق قوتها وأداتها في التحقق، كما أن النكاح قوة الجسد في الحفاظ على البقاء واستمرار النوع.

حين يريد العَرَض أن يحفظ وجوده، ويطوره، فإنه يبحث عن الهواء والماء والغذاء، وعندما يريد أن يحفظ النوع فإنه يبحث عن النكاح، وفي النكاح أيضاً بقاؤه هو؛ إذ إنّ هذا الأمر له علاقة بتوازنه الطبيعي كالطعام والشراب، وفيه أيضاً لذة يحصلها الإنسان منه،

ولكنها ليست غاية بذاتها، بل لجعل الإنسان يبحث عنها، من أجل بقاء النوع.

وقوة الذات العشق، به يتحقق وجودها، وهو يسمو بها، ليوصلها إلى الكمال، فالعشق آلة الذات وسبيلها إلى التحقق والبقاء فيما هو خاص بها من عالم الجواهر والزمان المطلق. إلاّ أنها بحاجة إلى الجسد، لتتمكن من الاتصال بالواقع، وتحقيق غايتها فيه بالعشق، فإذا دخلت في علاقة مع الجسد، مع ما له من نوازع وأهواء وقوى في خدمته، فإنّ عليها أن تحكمه، ليصبح آلةً طيّعة في خدمة غايتها في التجوهر والسعادة الأبديّة، وسبيلها إلى ذلك العشق، الذي يساعدها على التجوهر، والسمو، والرقي، فإذا لم تتمكن، وظلّ العرض حراً، فإن الذّات تنكفئ، ولا تتمكن من تحقيق غايته من العشق، فتقع في الاضطراب؛ إذ تظنّ أنها تعشق، وهي في الحقيقة، تنسجم مع حاجات الجسد.

والقوة العاقلة هي التي تعقل الجسد بقوتيه، الشهوية والغضبية، فلا تجعله بهيمياً، وهي صلة الوصل بين الذات والجسد. إلاّ أنه ليس للعقل سيطرة على الذات؛ لأنها أقوى منه وأرقى، فإذا سيطرت الذات

كان الخير، وإلاّ استعمل الجسد العقل وأدواته في تحصيل غاياته من خلال الشهوات والنزوات. فالعقل إذاً آلة حيادية كجهاز الحاسوب، والفرق بينهما في أن العقل لا يمكن أن ينظّف، نهائياً، مما في ذاكرته ليوضع مكانها برنامج جديد، كما هي الحال مع الحاسوب، ويظل على الدوام محكوماً بما تراكم فيه من تجارب وذكريات وأيام عاشها من سن الطفولة.

ومما يضعف قوة العشق لدى الذات، دخولُ الكره إلى القلب، إذ كلّما زادت الكراهية في قلب إنسان فَقَدَ القدرة على المحبة؛ لأن الذات لا تتسع إلا لشيء واحد، فبمقدار ما فيها من المحبة، ينقص ما فيها من الكراهية، وبمقدار ما فيها من الكره، يُطرد ما يقابله من الحب، فعلى الذات أن تبتعد عن الكره؛ لأنه يضعف قوتها وقدرتها على الحب، ولذا، فقد اقتضى ألا يدخل المرءِ في نزاعات على عَرَض من أعراض الدنيا؛ لأن مصدر الكره والعداوة بين الناس إنما هو هذه النزاعات، فإذا ما ابتعد الإنسان عن ذلك كلّه، خلت نفسه من الكراهية، وبمقدار ذلك تزيد قدرته على المحبة.

لماذا يغمض العشاق أعينهم في أثناء العناق؟

كلما اتسعت الرؤية ضاق الشعور وتشتت، فتنصرف الذات عن الإحساس بجمال العناق، إلى ما يقع تحت ناظريها من صور، وحين تغمض الأعين فإن الإحساس يتركز في اللمس والشمّ. أما السبب الآخر فهو عضوي، وهو أن العين لا تستطيع رؤية الأشياء القريبة جداً، فالجسد وحدَه يتصرف غريزياً في هذه الحالات؛ لأنّ الوضع يستدعي ذلك، فهو ردّ فعل عضويٌّ من جهة العين، كما هي الحال عند تعرضها لنور مبهر.

حب النظرة الأولى

الحبُّ من النظرة الأولى توهّمٌ في الغالب الأعم، يقع فيه من الناس الجهلة، فهو ينجذب إلى شخص يراه للمرّة الأولى، إلى حدّ التعلق، وقد يقاربه ويصارحه بإعجابه به، وتفسير ذلك هو أنّ أغلب الناس يحبون محبوبهم، لأنهم يرون فيه صورة رسموها في أذهانهم للشخص الذي يودون أن يحبوه، قد لا تكون حقيقته، وإنما تشكلت لديهم خلال تجاربهم في حياتهم، وهم يبحثون عنها، وحين يرون شخصاً ما، فإن اللاوعي يسقط عليه، لأسباب كثيرة تلك الصورة، ويهيأ لهم أنه هو من كانوا ينتظرونه. وعندما يقترب كل منهما من الآخر، وتتوالى اللقاءات، أو يتم الزواج، تبدأ حقيقة الأمر بالتكشّف شيئاً فشيئاً، حت إذا ما صدر عن المحبوب تصرف يخرجه عن هذه الصورة، تحول الحب بينهما إلى نفور أو كره. وهذا خطأ؛ لأن على الإنسان أن يعرف حبيبه أولاً، فيحبه كما هو على أساس معرفته له. ولذلك نجد أن المحبين يداري بعضهم بعضاً، وعندما يجدّ الجدُّ، تظهر الحقائق، ويظهر الاختلاف. وعلى هذا فالمعرفة أساس الخير والحب العظيم، أما الجهل فهو أساس البؤس، وعلى الإنسان ألا يحمّل

الآخرين ما يريده هو منهم، وإذا فعل فهو المخطئ؛ لأنه يظن أن الناس أصدقاء له، فهو يريد من الناس في الغالب أن يكونوا صورة عنه، فحين لا يكونون كذلك يغضب، وينزعج، فالعيب في هذه الحالة فيه هو نفسه، لأن أغلب الناس في ضلال. وهذه هي الحكمة الإنسانية التي تجعل الإنسان مرتاحاً، فلا يغضب من أحد، ولا يعطي أيّ إنسان فرصة أن يعكّر له مزاجه، ويفسدَ عليه حياتَه، بل على العكس من ذلك، فهو يعطيهم كل ما يريدون بمحبة، مما يجعل أغلبهم يرتاح له، ويتعامل معه بمحبة.

لذة الحب

في داخل كل إنسان رغبة في الحب، ينسيه إياها انشغاله بعرضه، وما يليق به، ولكنه، مع تحصيله ما يريده من تلك الأعراض، يشعر أن ثمة ما ينقصه. وحين يفقد الإنسان المحبة فإنه يفقد سعادته. وتبقى الماديات مصدر شقاء لصاحبها، سواء أكان هذا في السعي إلى امتلاكها أو في الحفاظ عليها، أو في حال فقدانها. أما المحبة فتجعل كل ما يمتلكه الإنسان مصدر سعادة له، فإذا امتلك شيئاً من الماديات، فهو لا يخشى من فقده، وإذا لم يمتلكه، لم يحزن لذلك أيضاً.

مصدر اللذة في الجسد البشري حيواني، وتقاس شدتها وتقيم بحسب العضو الذي يكون أداة تحصيلها، فلذة العين غير لذة الأذن، ولذة اليد غير لذة اللسان أو الأنف، أو العضو التناسلي، الذي اللذة التي يحصلها أكبر اللذات جميعاً. ولكن الإنسان لا يملك جسداً حيوانياً فقط، بل هو يملك الذات أيضاً، وبوجودها تختلف الأمور، هذا مع وجود أصل توليد اللذة في الجسد، وتأتي الذات لمعادلة الآلية في توليد اللذة بشكل كلي، فتجعل هذه اللذة في خدمة الذات، فتولد سعادة خاصة بها، بما هي جوهر، ولها آلة تتولد عنها، وحين تختلط الذات بآليتها في توليد السعادة، مع الجسد في آلية توليد اللذة فإنّ السعادة تصبح مطلقة، وكلما نمت آلية الذات هذه، كانت العلاقة أرقى، وكان الاندماج بين سعادة الذات واللذة الجسدية أكبر،

حتى يصبح الإنسان في سعادة دائمة وسمو، وصعود وتطور من سعادة كبيرة، إلى سعادة أكبر، وعلى هذا فهو لا يقف عند البهيمية الجسدية، التي يقف عندها معظ الناس، وإنما تكون لذاته الجسدية مميزة جداً، ويكون أثرها فيه كبيراً جداً ومختلفاً جداً.

وقد يختلف هذا من إنسان إلى آخر بحسب نسبة معرفته بذاته، إلا أن أغلب الناس يشتركون في أنهم لا يبحثون إلاّ عن اللذات المادية، فالطعام واحد والنكاح واحد، ولذة جمع المال واحدة، وإن تفاوتت من شخص إلى آخر، وبحسب الظروف والزمان والمكان وحال المرء. وهي كلها لا تتطور، بل ربما يصاب أغلبهم بالكلل، لأن أجسادهم ما عادت تستطيع امتلاك الآلية الخاصة بتحقيق اللذة، كالأمراض التي تصيب الجهاز الهضمي على سبيل المثال، أو التي توهن الجسد ولا تجعله قادراً على الاتصال الجسدي بالآخر. أما في حالة وجود الذات، فإن الجسد يخضع لها، وهو يكون في أفضل حالاته، فلا يصاب بالأمراض التي تعيقه عن لذة الطعام أو لذة النكاح، لانضباطه في الأصل بتوجيهاتها، ومع تقدم عمر الإنسان وما ينتج عنه من ضعف في الجسد، وعدم قدرته على الاستجابة، فإنه يبقى، لاندماجه بالذات، أقدر من الأجساد الأخرى التي لا تخضع للذات، في تحقيق اللذة القصوى المتحدة مع السعادة، فإذا كانت اللذة تضعف آليتها من جهة الجسد، فإن السعادة تقوى آلتها مع تقدم العمر وتجوهر الذات.

العشق والشوق

كان اللقاء بين العاشقين، في الماضي، ليس سهلاً، لذلك فإن العاشق كان يعيش في تعاسة ناتجة عن شوق دائم إلى لقاء لا يتحقق، أو يتحقق بصعوبة. وعند تحقق ذلك فإنه لا أجمل ولا ألذّ من ساعة اللقاء؛ لأنها تمّت بعد صبر طويل، ومداراة ومخاتلة للناس حتى لا يعرفوا بأمرهما، وغالباً ما يكون هذا اللقاء قصيراً، وسريعاً، يعقبه انتظار طويل، وهو ما يؤدي إلى عيش العاشقين في حالة توهج دائم، وشوق، وألم يعتصر الإبداع، فينتج مشاعر رائعة وعظيمة، كانت تغذي عند كبار العاشقين أدباً عظيماً، كمجنون ليلى، وابن الفارض، والسهروردي، وجلال الدين الرومي.

وقد فقد المحبون في زماننا هذا، كلّ ذلك؛ إذ استطاعت وسائل الاتصال الحديثة أن تلغي حدة الشوق بينهما؛ لأنها وفّرت لهما قدرة على الاتصال في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، ولعل هذا ما يضعف فيهما جذوة الشوق إلى اللقاء، ويوجّه علاقتهما ناحية الجسد، إذ إنّ في تقنية الصورة الثابتة والمتحركة ما يدفع على الاستزادة من اكتشاف جسد الآخر، ويتفاقم ذلك ليزيد في تأجج الحواس والشهوات الجسدية، فتغيب بقدر ذلك الذات، وما يليق بها

من معاني رائقة الجمال والحسن في العشق والحب والشوق. حتى إذا ما التقيا ما كان عندهما شيء للكلام؛ لأنه استُهلك عبر وسائل الاتصال، إلاّ إذا كان الحب عشقاً، فإن وسائل الاتصال تلك ستزيد من تجوهر كل من العاشقين، لأنها تمكنهما من العيش المشترك لفترات طويلة من اليوم، وهو ما يجعل كلاً منهما أقرب من الآخر، وأقدر على معرفته والتماهي معه، وهذا ما يساعدهما على زيادة الشوق إلى اللقاء، لأن الذات عندما تتجوهر تزداد توهجاً وتألقاً، ويزداد أثرها في الجسد رغبةً، تدفعه إلى لقاء الحبيب. ولعل هذا ما يجعل اللقاء أروع وأجمل؛ إذ إنه لن يكون لقاءً جسدياً، كما تكون عليه الحال بين معظم المحبين، وإنما سيكون لقاءً بين ذاتين عاشقتين، برّح الشوق بهما مع طول الحديث، وغوص كلٍّ منهما في الآخر، فتشتاق الذاتان إلى الاتحاد والامتزاج، فيتحقق هذا بالعناق ساعة اللقاء.

لولا الانفصال ما كان ثمة شوق إلى الاتحاد، وهذا الكلام يجوز أيضاً في الكلام على ابتعاد الإنسان عن خالقه، وحنين العودة إليه. فروعة الانفصال الأزلي يترتب عليها شوق إلى الله تعالى، والله عز وجل يشتاق إلى عبده شوق الكل إلى الجزء، ولكن هذا لا يعني أنه يكتمل به، وإنما يسعى إلى كمال الإنسان بتوجيهه للعودة إليه، وهذا شبيه

بحال العاشق الذي يريد من معشوقه أن يعرفه ويتقرب منه ليكمل به. وقد نجد أن العاشق، في لحظة ما، يأخذ على نفسه العهود ألا يرى حبيبه، أو أن لا يكلمه في الغد، وتختلف التفسيرات حول هذا الموضوع، ومن ذلك أن العاشق يخشى أن يتضايق حبيبه من تكرار اللقاء، خاصة إذا كان لا يثق بمحبة المحبوب له. ومنها أن العاشق يحرص على حبيبه، ولا يريد أن يثقل عليه، خشية من فقده، فهو يؤجل، ويعدُ النفس أنه لن يذهب غداً، فإذا ما جاء الغد، وجد نفسه مندفعاً إلى اللقاء، مقسماً على أن الغد لن يشهد لقاءً جديداً، ولكن الأمر يتكرر في كل يوم، مع ما يصاحبه من قلق وتوتر، فهو يحنّ إلى لقائه، ولكنه لا يريد تحقيق اللقاء، كي لا يكون ثقيلاً على الحبيب.

نظرية في العشق والوجود

لا بد من البحث الدائم عن الزمان المطلق؛ لأن عالمنا مختلف؛ إذ لو اتحد العاشقان، فكيف سيشتاق كل منهما إلى الآخر، وقد ذاب فيه؟ ولو أمكن الذوبان لما كانت الذات بحاجة إلى البحث عن شيء، وقد حققت ما تريد. وكان الانفصال، ليكون الشوق الدائم، ومع الشوق الدائم ثمة سعي إلى اللقاء، وسعي إلى الاستزادة منه. وإذاً؛ هناك عمل، وبحث عن المعرفة، وسعي إلى إعمار الوجود؛ لأن هذا الإعمار مرتبط بإعمار الذات، وإعمار الذات مرتبط بالعشق. إنّ هذه النظرية قائمة على تفرد الذات الإنسانية؛ لأن الذات لو ذابت في غيرها لانمحت؛ ولأن الله يعرف أسرار الذات الإنسانية، فقد جعل العشق كائناً فيها بالقوة، وربطه بالبحث، وربط البحث بالمعرفة، وربط المعرفة بالعمل، وربط العمل بالعشق، ومن هنا تصبح النظرية حلقة مفرغة، إذا فقد عنصر فيها، انقطع التسلسل، ووقع الإنسان في الفراغ.

لا أحبك...

حين يكون العاشق في حضرة حبيبه، ويصل به الشوق الكبير إلى حد يعجز معه عن التعبير عنه، وهو بحاجة إلى ذلك، فإنه لا يجد إلاّ نفي المحبة، فيصرخ بحبيبه: "لا أحبك!" وهو في الحقيقة يقصد: "إنني عاجز عن أن أحبك؛ لأن ما أشعر به، ويربطني بك ما هو أرقى من الحب، وأعظم"، وهذا التعبير نوع من الرغبة في إثبات الشيء عن طريق نفيه.

إنّ وقع هذه الكلمة على الحبيب كبير جداً، فيتفجر فيه الشعور ذاته، ويدرك تماماً ما يريده عاشقه من هذه الكلمة، ويدرك، أيضاً، أن ما يجمعهما شيء سماوي غير عادي، ويعرف أنه يريد أن يقول له: "أشعر بالعجز عن تحمل عشقك لي، وأنا عاجز عن استقبال هذا العشق الكبير، وعاجز أمام هذا التوتر العظيم، الذي يغمرني به هذا العشق"، حين يشعر بذلك، يقول الحبيب أيضاً، بكل بساطة: "وأنا أيضاً لا أحبك!" ويكون في الوقت نفسه قد صرّح بأجمل شعور وأعمق إحساس، يمكن أن يعرفه إنسان، شعور الضعف والعجز البشريين أمام العشق الإلهي. إنّ جملة: "لا أحبك" هذه، تمثل قمة من القمم التي يمكن أن يعيشها عاشقان، وهي نوع من أنواع

التعبير الذي تلجأ الذات إليه، عندما لا تجد في قواميس الذاكرة اللغوية ما يلزمها من مفردات ترسم حدودها، أو ترسم بحدودها ما فيها من مشاعر نبل ورفعة وسعادة وضياء.

حين يقول الحبيب لعاشقه: "لا أحبك"، فكأنه يقول له: "اتركني، وإلا سأتلاشى أمام هذه المحبة"، فهو يحافظ على ذاته، لأنه يشعر أن ذاته تختلط بذات العاشق، وفي داخله شيء لا يحتمل هذا، فتخرج هذه العبارة: "لا أحبك! دعني أرجوك، دعني موجوداً"، ولكنه لا يعي ما يقول، بل لعله يقول هذا حرصاً على استمرار الحب، واستمرار الاتحاد، ولكنه حريص على ذاته أيضاً، فلا يفقد القدرة على تأمل جمال عاشقه، فهو بين رغبتين: رغبة الذوبان في العاشق، ورغبة الاستقلال عنه، ليتمكن من تأمل جماله. وهو بذلك بين نارين: نار الشوق إلى الحبيب عند تأمله عن بعد، ونار الخوف من التلاشي فيه عند الاتحاد به، وعندها تفيض الحيرة، ويتصاعد الشجن، فيغدو محبة، ويغدو عشقاً مطلقاً.

عندما يقول العاشق لحبيبه: "لا أحبك"، فهو يقول له: "أخاف من حبي لك، كما أنني أخاف على حبي لك مني، كما أنني أخاف عليك من حبي لك، كما أنني أخاف على حبي من حبك

لي"، فهو في خوف دائم، لا ينسيه إياه، إلا الذوبان في المعشوق، والغوص في عينيه، فيشعر أن ذاته تماهت بذات المعشوق، وأن خوفه تبدد، ولم يبق إلا الشعور بالسعادة المطلقة، وكأن الخوف من الحب، هو خوف من الفراق ومن البعد، ورغبة في العناق والوصال؛ فإذا ما تحقق هذا، ما عاد ثمة في الوجود إلا العاشق والمعشوق في اتحادهما، ولم يبق في الكون إلا هما، ولم يعد هناك خوفٌ لا مِنْ، ولا على، ولم يعد هناك خشية من الفراق، ولا شوق إلى اللقاء، فهما لا يريدان الانفصال؛ لأنهما يشعران أن هذا الانفصال يعني عودة الخوف، فتراهما يأبيان، ويشد أحدهما الآخر إلى صدره، يريد الامتزاج به علّه يهبه ماء الحياة، وهو كلما أخذ أعطى، وكلما أعطى أخذ، فهما أبداً في عناق دائم. حينها يفنى الزمان والمكان، ويتحقق المحال، ويتلاشى الناس والكون والعالم، ولا يبقى إلا هما، وليس ثمّة في الوجود إلا هُوْ؛ لأنهما عادا إليه؛ لأنه في الأزل لم يكن إلا هُوْ.

عندها يشعران بالعجز عن الحمد، وهذا هو أرقى اعتراف بالحمد، ويقابل الشعور بالعجز عن المحبة، المعبَّر عنه بكلمة: "لا أحبك"؛ لأن مصدر الخير في الطرفين واحد، في الوجود الأول: الذات الإلهية، ومصدر العجز عن متابعة الحب، مع الرغبة في الاستزادة منه،

هو ذات المحبوب التي هي صادرة عن الذات الأولى، فكأن العجز عن الحب يقصد به حب الذات الإلهية. فالعجز عن الحب شعور غامر بالعشق العظيم، وبالاتحاد بالحبيب، يصاحبه خوف منه، ورغبة فيه، في الوقت نفسه، ومصدره الفيض الإلهي الذي غمر ذاتي العاشقين فشَعّ فيهما العشق، فبحثت كل ذات عن اللقاء بالأخرى، وعجزت عن الاتحاد بها، على ما لهما في أصل التكوين، فلا هي تطيق جمال الاتحاد به، ولا هي تطيق ألم النأي عنه، فهي بين خوفين.

التخاطر بين العاشقين

التخاطر هو رغبة داخلية تتولد عند العاشق، حينما لا يفكر إلا بحبيبه، وتمنعهما الظروف من الاتصال. فيعيش لحظات متوهجة، هي لشدة توهجها، تعزل المحب عن الواقع الماديّ، فينتقل إلى زمان ومكان مختلفين؛ من عالمه إلى عالم محبوبه، وكأنّ الجوهر خرج إلى الجوهر، واتحد به. وإنما يكون نجاح التخاطر وقوته واستمراره، بحسب قوة الحب والشوق بين العاشقين.

ويشعر العاشق، قبل حصول التخاطر، بإجهاد كبير، وكأنه أمام حائط مسدود، فيحسُّ بتوتر وإرهاقٍ شديدين، ولا يعرف سبباً لذلك إلاّ حضور صورة الحبيب فيه، وعظم الاشتياق إليه، وكأنّ الجوهر الذي يريد الخروج من العرض للقاء الحبيب، يلقى عنتاً وممانعة، ويدرك أن ثمة شيئاً لا يتحقق، ثم يأتي ارتياح عظيم، وشعور بالجمال والسكينة والراحة والسعادة. إنها حالة تشبه ولادة الإنسان. وليس هناك أجمل من تلك اللحظات التي قد تطول، ففيها شعور قوي جداً بالجمال، والسكينة والوصال، ينتج عن اتصال جوهره بجوهر الحبيب، فلا يريد عنه عودة، ويشعر الحبيب بمثل ذلك، فتراه في شبه غيبوبة عن الواقع المحيط به من الناس والأشياء. نعم، لقد تحقق الاتصال الروحي.

العشق ولادة جديدة

ثمّة أمور بسيطة تحدث بين العاشقين، تغير الوجود بأكمله، فالحياة، بالنسبة إليهما، أصبحت جديدة. وكل منهما يولد من جديد، في يوم اللقاء الأول، وفي كل لقاء. ومن هنا ندرك كيف أن العشق يجعل الإنسان يولد من جديد، وهذه الولادة هي الولادة الحقّة. فالولادة الأولى كانت ولادة جسد فقط، وبالعشق يولد العاشق من المعشوق، وكل منهما يلد صاحبه؛ لأن كلاً منهما أصبح عاشقاً ومعشوقاً، في الوقت ذاته، فيولد كل منهما في عالم من العشق، يحيط به العشق، وتفرح به النجوم، وتسر به المجرات، وتغبطه على وجوده الكائنات، وتصفق له جميع مفردات الكون، وتقول له: "أنت الآن عدت إلينا، بعد أن أصبحت عاشقاً، نحن عشّاق مذ خلقنا، أما أنت فكنت عاشقاً بالإرادة، فأنت تفضلنا، قبل العشق ما كنت موجوداً، وكنا أرقى منك في وجودك، أما الآن، فقد أصبحنا في خدمتك، ما دمت عاشقاً، ونحن طوع إرادتك، سُخّرنا لك من الأزل، كنتَ عاشقاً، ولكنك نسيت، واليوم حين تذكرت أنك عاشق، عدت سيد الكون".

بالعشق وحدَه يُصبحُ الإنسان عبداً لله، بالعشق وحدَه يكون خليفة، ويذكر الشهادة، بالعشق وحدَه يصبح القرآن في قلبه، ويقرأه

فيـه، بالعشـق وحـده، يفـيض النـور الإلهـي مـن قلبـه، ليغمـر الكـون بأكمله، فكيف يخجل العاشق من أن يعلن عشقه أمام الناس كافة؟ ولمـاذا يخجـل، وقـد وهبـه الله ذلـك النـور الإلهـي؟ كيـف، وقـد حـرّر بالعشق إنسانيته، فأصبح، على الحقيقة، خليفة له في أرضه؟ ألا يجدر بهذا الإنسان أن يعلّم الناس العشق ويقول لهم: "اتّبعوني، كونوا على شِكلِي، أحبّوني، يحببكم الله، وتسجد لكم الملائكة، ويُسخَّر الكونُ لكم، كونوا على شِكلِي، تكونوا".

ولعل هذا ما يفسر حرص العاشق على ضمّ حبيبه، وتلمّس جسده، كأنه يريد أن يعانق المطلق، ويغوص فيه. كما أنه ليس عجيباً أن يسعى العاشق إلى الغوص في ذات حبيبه، لأنه يبحث عن الأزل فيه، يريد به ومعه، الانتقال من الظاهر إلى الباطن، حيث يحصل التّوحّد بينهما، عندها يدرك العاشقان أن الظاهرَ يقود إلى الباطن، وأنّ الجوهر سرُّ العَرَض.

ولا يـدرك هـذا الكـلام إلاّ مـن عاشـه؛ لأنّ مـن لم يـر نـور الشمس يظن أن ضوء الشمعة هو النور، ومن لم ير التجلي الإلهي يظـن أن المصباح هـو هـذا التجلـي. مـن لا يفهـم هـذا لا يـرى في الإنسان، وفي الوجود بأكمله إلا التراب، وقد نسي أن التراب هذا لا قيمـة لـه على الإطلاق إلا بالتجلي الإلهي فيـه، بـدليل أن الإنسـان

حينما يموت، فإننا نسارع إلى دفنه في التراب، لأن هذا الجسد لم يعد مجلى لله. فويح من ذاق ممن لم يذق! وويلٌ لمن عرف ممن لم يعرف!

الولادة الجديدة تشعر المعشوق بالغربة، وحين يكون بين مفردات الكون، يختفي هذا الشعور، لأنه يرى ذاته بين أهله وخدمه، فيشعر أنه ليس وحيداً، فهذا الكون الرائع خلق له. أما حين يكون العاشق بين الناس فإنه يدرك وحشة الغربة؛ لأنه عرف، وهم لم يعرفوا، وذاق ولم يذوقوا. عندها يأنس بالوحدة مع الطبيعة، حيث لا يكون غريباً.

كيف يمكن بعد ذلك أن نُغضِب هذا الإنسان؟ كيف نجرؤ على الإساءة لهذا المخلوق الإلهي الرائع، وإلى تلك الخلايا التي تسبح بحمد الله؟ ألا يجدر بنا أن نقف بخشوع وصمت، علّنا نسمع صوت تسبيحها؟ هكذا يفعل العشق، يجعلنا نرى الله في كل الموجودات، فكيف لا نراه في الحبيب؟ لو كنا نسمع على الحقيقة لسمعنا موسيقا أبديّة، لانهاية لها، تسبح بحمد الله، ولو كنا نرى على الحقيقة لرأينا كل خلية في كل موجود، تسجد لله، وتتحرك بالإرادة الإلهية. ويح من لا يقف خاشعاً أمام الحبيب!

القسم الثاني

كلمات وأشعار في العشق والجمال

- لكل منّا في حياته، كرسي شاغر، ينتظر من يشغله، أو يعود إليه.
- المرأة التي تستطيع إدخالك الجنة، هي نفسها قادرة على جعل حياتك جحيماً. كن حصيفاً.
- قال المريد لشيخه: هل الحب واحد عند الرجل والمرأة يا معلمي؟ أجاب الشيخ: لا يقول هذا إلاّ جاهل بطبيعة كلٍ منهما، الحب عنده أناني، يغلب عليه الجسد، ويبدو هذا فيما يطلبه منها، وما يقدمه لها من هدايا، وهو عندها اجتماعي، يحكمه بحثها عن الأمان، ويبدو ذلك في حرصها على الولد والأسرة والبيت.
- قال لها: أنت لا تحبينني، تحبين حبي لك، تبسّمت.
- يبقى جمال "بلى" مخبوءاً فيك بالقوة، لا يحرره إلاّ العشق.
- لن تحظى بمحبّة الناس، حتى تمنحهم محبتك أولاً.
- عندما تقرع باب الحبيب لن تجدَه موصداً، اعشق، فما عُدَّ غير العاشقين من الأحياء.
- أوقفني في مقام العشق وخاطبني: أنا أولى بك منك، وأنت أولى بي من نفسك.
- بالعنف، يمكنك الحصول على الأشياء، بالمحبّة، تحصل عليها مع قلوب أصحابها.

- تستطيع أن تحكمَ العالم بقوتك، ولكنّ قلبي لن تملكَه إلاّ بالحبِّ.
- ولهنّ عليكم درجة، بما آتاهنّ الله من جمالٍ ودلالٍ.
- الشهرة تتلاشى، والمالُ يذهب، ولا يبقى إلاّ الحبِّ، يمنحُ حياتك طعماً ولوناً.
- قلبٌ واحدٌ، واحدٌ فقط، عندما تلتقي به، سيصبح لحياتك معنًى.
- كم ستكون لياليك باردةٌ، وطويلة، يا من لا تملك ذكريات دافئة!
- العشق يحول الصحراء إلى جناتِ نعيم.
- لم يَخلق الجمالَ إلا ليردّك به إليه، وعلمك العشق.
- سيقولون بعدك: من هنا مرّ عاشق.
- وما يزال للأنوثة حق على الرجولة، لا يبطله تقلب الزمان، ولا جريان الحدثان.
- نحن نرى من نحبّ كما نريد أن يكون، وليس كما هو بالفعل، سنتألم كثيراً عندما نكتشف ذلك.
- لن تبلغ السعادة حتى يكون حبّك للناس أحبّ إليك من محبتهم لك.
- أحياناً، نكون قساةً مع من يحبوننا، كأننا نريد منهم إظهار مزيدٍ من التّعلق، يرضي غرورنا، أو أننا نخشى أن يزداد تعلقنا

بهم. كن على حذر، فقد تصبح، في يوم من الأيام، نادماً على ما فعلت.

- أتدري من هو الفقير؟ هو من أقفر قلبه من محبة عيال الله.
- قلب العاشق بين كلمتين من الحبيب، وهو في رضا دائم: كلمةٍ تكسر قلبه، وأخرى تجبر كسره.
- عندما تحتجب شمس قلبك، ويلفُّك حزنٌ عميق، فإنّ كلمةً واحدةً من الحبيب تُعيد إليك الحياة: "ألست..."؟
- أيتها النّاي، أنصتي إلى قلبي، وسيتحول أنينك إلى نحيب دائم، لا ينقطع، فأنا، منذ أبعدت عن حبيبي، وعيناي تقطران دماً.
- تتوالى الأيام وتنقضي السنون، بين شروق وغروب، وتبقى أجمل الساعات هي تلك التي نعيشها مع من نحبهم، هؤلاء الذين لا يغادروننا، وإن ابتعدوا عنا.
- سأل التلميذ شيخه: ما الرّان يا معلمي؟ قال المعلم: هو أن تحب لغيرك ما لا تحبّه لنفسك.
- ويحك، أما كفاك كذباً على الله، إن كنت تحبّه، أحببْ عياله.

- لا تخجل من النّحيبِ في حضرةِ الحبيب، كلُّ دمعةٍ تورقُ جنّةَ نعيم.
- أم كيف يأتيك الله هرولة، إن لم تأته على جناح محبة الخير لعياله.
- لا شيء يجعل الحياة عظيمة، تستحق أن تعاش، مثل حبّ عظيم.
- وما يزال السؤال يقرع باب القلب: أين الأحبة الذين رحلوا؟
- يا أيُّها الليل الذي ينتظر صباحَه، أما آن الأوانُ لتشرقَ شمسُ القلب، فتبدّد حُجُبَ الأعْراض؟ أنرْ وجودك بالعشق، تكنْ على الحقيقة.
- لن تنبت القلوب الصخرية محبةً، حتى يصنع الذبابُ عسلاً.
- لن تجده في الصيدليات، وهو لا يباع عند العطارين، ابحث عن الحب في قلبك، عندما تحبّ، فأنت تصبحُ مسؤولاً عمن تحب، كنْ كذلك، أو لا تخدعنّ أحداً.
- لن تعرف السعادة، حتى تملأ قلبك بالمحبة.
- الحبُّ لا ينتظر أن تقرر.
- ما نفع القلب إن لم يكن بيتاً للحبيب، وما نفع الروح إنْ لم تكن هائمةً به.

ندم

- لن تسمع الكلمات التي كنت تحبُّ أن تسمعها، لأنك في يوم ما، لم تصدق القلب الكبير الذي أحبك، وكان يقولها لك، ستمضي حياتك في الندم، لأنك كنت متكبراً ذات يوم، وستتمنى لو أنك تضحي بكل ما جنيته في حياتك، فقط؛ لتستردّ ذلك القلب.

الحب

- الحبُّ ليس لعبةَ أطفال، إنه مسؤولية، وليس من النُبلِ أن تدخلَ حياةَ شخصٍ، تقلبها رأساً على عقب باسم الحب، ثم تتسلل خارجاً عندما تريد.
- يكبر الحبُّ، ويعظمُ، بكبر النفس المحِبّة، وعظمتها؛ وبالحبيب.
- كانت تقول له باستمرار: قلْ لي: أحبُّك، وكان يصمت. أدركتْ أخيراً أنّ الحبَّ أكبرُ من الكلمات.
- ذاك الأنين الذي يُسمع من النّاي، ما هو إلاّ صوت جسدي الذي يتأهبُ للرحيل، ولهيب قلبي الذي يحرقه البعدُ، لا تحدّث أحداً عن الأنين، ولا تشرح لهم رائحةَ الحريق، فالعشّاق وحدهم يفهمون هذا، حتى أنا، قبل أن تمسّ شفاهُك شفاهي، ماكنت أدري شيئاً.
- انتظرتك طويلاً، قبلك لم يُحبِبْني أحدٌ.
- لا يُباع الحبُّ في الصيدليات، ولن تجده عند العطارين، هو جهد تبذله نحو الآخر، تتخلّى فيه عن أنانيتك.

- بالحب وحده تصبح الحياة جميلةً، وتملك القوة على تخطي الصعاب، ولن ترى في الوجود إلاّ قلوباً مقفلة، عليك أن تُعلّم أصحابها كيف يعثرون على المفتاح.
- في تمجيد التأنيث أقول لك: هل كان الوجود سيكون بهذا الجمال لو لم تكوني فيه؟
- من منا ليس بحاجة إلى كتف حبيبٍ، يسند رأسه عليها؟!
- أحيانا، نكون قساةً مع من يحبوننا، كأننا نريد منهم إظهار مزيد من التعلق، يُرضي غرورنا، أو أننا نخشى أن نتعلق بهم. كن على حذر، فقد تصبح، في يوم من الأيام، نادماً على ما فعلت.
- كم هي رائعةٌ الحياةُ وجميلةٌ، عندما تجد شخصاً، كلٌّ منكما يقول للآخر: أنت كل أسباب وجودي، سأعتني بك حتى نهاية العالم، وإذا متُّ قبلك، فإنني لن أبتعد عنك، ستشعر بذراعيّ تحتضنانك، ويدي تمسحُ رأسَك، وتكفكفُ دموعَك، وسيكون ألمي كبيراً لأنني لم أعدْ قادراً على حمل أحزانك عنك.
- القلوب العاشقة، لا تعرف اليأس في الانتظار.

- الحبُّ، أن تكون مسؤولاً عمن تحب، ولن تحب أحداً إلاّ إذا عرفته، ولن تفعلَ إن لم تعرف ذاتك، وتدركَ أنّ وجودَك من الله، وإلى الله، وبالله. لا تخدعنّ نفْسَكَ.
- رأيت الحبَّ مصلوباً على باب المدينة، كانت العيون التي صلبته، هي نفسها تبكي عليه.
- ما كانت الحياة جميلة إلا بوجود من نحبُّ فيها، فنسعد بهم ويسعدون بنا، سبحان من جعل المحبة بدايةَ خَلْقِه، وأعاد عبادَه إليه، بها.
- الإخلاصُ في الحبِّ، تركُ ما سوى الحبيب.
- إلاّ الأحبة الذين رحلوا، فإنهم يتركون في القلبِ غصّةً عظيمةً، وشوقاً كبيراً. لا تحزن لفقد غيرهم.
- لم تُخلق البلابل المغردة لتعيش في الأقفاص، وتغريدها الشجي لم يكن ليُحجب عن النسائم والأزهار، عندما يخفق قلبُك للقاء الحبيب، علّمه كيف يكسرُ قفصَه.
- واعلم أنه لن توجد الموجودات على الحقيقة، حتى تراها بنور القلب، وعين العشق.

- لا تستمع لأنين الناي، يشكو لوعةَ الفراق، وألمَ الحنين، كنْ أنت الناي.

- ليس حكيماً من يحتاج لاختبار ألم الغياب، لمعرفة سعادة الحضور. افرح بوجود من تحبهم بالقرب منك، فأنت لا تعرف متى تفقدهم بالبعد عنك.

- لا قياس، ولا مقارنة، ولا مقاربة في الحب، أنت حالةٌ فريدة، فلا تقعنّ في فخّ القياس على تجارب الآخرين، أنصِتْ إلى وشوشاتِ روحِكَ، واستفتِ قلبَك في معرفة ما هو وهمٌ ممّا هو يقين، وحذار من تحكّم هوى نفسك وغرائز جسدك، بعقلك وقلبك وروحك، فلن يُعمي بصيرَتك مثلهما، وأوّل من يغدر بالحب هو الكبرياء، أليس هذا هو الفارق بين الحبّ المبصر والحبّ الأعمى؟

- واعلم أن العبادة ليست بكثرة السجود والركوع، هي بأداء كل ذلك بمحبة وولوع، فأجمل لحظات العاشق لقاؤه بحبيبه، يذهلُ فيها عمّا سواه، ولا يكون إلاّ به.

- تدّعي بالحبيبِ عشقاً، وأنت لا تني تذكرُ غيرَه، ويح المرائي من ريائه!

- لا شيء يجبرُ القلوبَ المنكسرةَ، مثل سماعها قول الحبي: "فإنك بأعيننا".

- القلوب التي لا تَسَعُ الله، لن تعرف السَّعادةَ أبداً.

- وكأنّ صوته يخاطبك: ومن أعرضَ عن جمالي، لم يذقْ طعمَ وصالي، يا عبدي: أنت المختار، بين سعادتك وشقائك.

- ولا أعبأ بوجودي، وما أنا صائرٌ إليه، ما دمت بعينك.

- قد يكون من السهل أن تجد من تحبه، ولكنَّ الاحتفاظَ به يتطلب عملاً وجهداً صادقين.

- عندما تكون وحيداً، ويغمركَ الحزنُ، تذكر أنَّ ثمّة شخصاً في هذا العالم، يفكرُ فيك، أنتَ بالنسبةِ إليه كلُّ العالم.

- عندما تقرع بابَ الحبيب، لن تجدَه موصَداً، اعشقْ، فما عُدَّ غير العاشقين من الأحياء.

- لا تسمحْ لحزنك أن يسرق الابتسامة من وجهك، فأنت لا تدري من سيعشق هذه الابتسامة، ويُخلّصكَ من آلامك.

- يتكّلم الناسُ في موضوعاتٍ كثيرة، ولكنّ معظَمهم لا يعرف ما يتحدّث عنه، والعجيب أنَّ أكثر ما يتحدثون عنه هو الحبُّ.

- لطالما فكرت في الألم الذي كان سينتاب من ودّعوا أحباباً لهم، لو خطر ببالهم، ساعة الوداع، أنهم لن يلتقوا بهم من جديد.
- وجودك منه وإليه، فاجعله به، ولا تجعله بغيره.
- طالما أنت معي فأنا مستعد لكل شيء، أعرف أنك لن تخذلني.
- ما زال صوته يناديك في كل آن: "ألست بربكم"؟ افتح قلبك بمفتاح الحب، وأنصت للنداء، تكنْ من الأحياء. فالناس كلهم موتى، ولا حيَّ سوى العاشقين.
- إيه... العشقُ كُنْهُ الكائنِ، بالعشق وحدَه تصبح موجوداً على الحقيقة، وتغدو فوق الزمان والمكان.
- املأ كفّكَ بالحَبِّ، ستأتيك الطيور الجائعةُ، لا تنتظر أحداً، ابسط يدك بالحُبِّ، سيحببك الجميع، ومن منّا ليس جائعاً للحب؟
- ويحَ قلوبٍ لم تعرف لهيب العشق، وتحترق بنار الوجد!
- لا تركن إلى عقلك، إنْ لم يستضئ بنور قلبك.
- تعلّم أن قلبكَ بيتُ الله، ولا يتسع البيتُ إلا لقاطن واحد، فإذا فعلت كان وجودُك كلُّه من الله، وإلى الله، وبالله، فلا تحبْ إلاّ به ولا تبغض إلا له. لن تعرف الخوف بعدها أبداً.
- ألف عامٍ لا تكفي، لعيش ذكرى ساعةٍ، قضيتها بقرب الحبيب.

- الحبُّ وحده يلد الأعياد، ولا يعرف العيد من لم يعرف الحب، وعندما يمتلئ قلبك بالحب فإنه يفيض ليجعل أيامك وأيام من حولك كلها، عيداً.
- بالحبِّ وحده تصبح الحياة جديرة بأن تعاش، وتصبح مقدرتك على تجاوز الصعاب عظيمةً، ولن تعرف الخوف على الحقيقة، وسيزول الكُره من قلبك، فلا ترى في الوجود إلا قلوباً مقفلة عليك أن تعلّم أصحابها كيف تعثر على المفتاح.
- أقسى الجروح، وأكثرها إيلاماً، هي تلك التي سببتها لنا أيدي من نحبهم.
- لا يستطيع الرجل أن يرى في المرأة إلا نفسَه، فهي مرآته، فإنْ كان عظيماً رأى فيها عظمته، وإن كان وضيعاً، رأى فيها ذلك.
- لم تخلق النساء لحمل الأطفال في أرحامهن فحسب، وإنما خلقن للعشق أصلاً، وبهن كمال الرجل، ألم يحبِّبهن الله لرسوله الكريم، وهو الإنسان الكامل؟ فكنْ عاشقاً، قبل أن تكون باحثاً عن الولد.
- البيت لا يتسع إلا لساكن واحد، إن شئت عشق غيره، فكر في مآلك، فإنه يغفر كلَّ شيء، إلا أن يشغل قلبَك غيرُه.

- كل الدروب مُضلّةٌ، إلاّ درب القلب، فمن سلك غير هذا الدرب ضلّ، وأضلّ. لا تُضيّع هبة الحياة في الحوار مع من لا قلب له.

- كلُّ أسلحة الكون لا تجعلك تملك قلب إنسان، بالحب وحده تفعل. ويلٌ لمن ظنّ أنه سيجني الحب من زرع الكره.

- عندما تعشق عظيماً، يتوقف زمانك المقيَّد، ويبدأ الزمان المطلق، فانظرْ مَنْ أنت عاشق.

- يا مسكين، ما الذي تبقّى لك لتعيش من أجله؟ فقد غابت شمسُ قلبك، التي كان وجودك منها وبها وإليها.

- الحبّ ما وقرَ في القلب، وصدّقه الخيرُ الذي تقدمه للحبيب.

- عندما يكون الحب معرفة يصبح مسؤولية، فأنت لا تستطيع أن تحب أحداً إلاّ إذا عرفته، ولا يمكنك أن تصبحَ مسؤولاً عنه، إلاّ حين تعرف ما الذي يصلح له، ولا يصلح، ولن تعرف كلَّ هذا، وتتمكّن من فعله إن لم تعرف ذاتَك، ولن تعرف ذاتك إنْ لم تر أنك موجود من الله وإلى الله وبالله.

- يقول الجاهلون: هي نصف المجتمع، وأقول: بل هي العالم كله.

- لا تدعوا غربالَ الحقد يحجبُ شمسَ الحب في قلوبكم، بأي شيءٍ ستتدفأ حياتكم؟
- قلبُ العاشق بين كلمتين من حبيبه، وهو في رضا دائم: كلمةٍ تكسر قلبه، وأخرى تجبره.
- ادّعاء المحبة سهلٌ، والحبُّ صعبٌّ، لا يدركه كل من ادعاه. دعْ قلبَك ينظرْ، وبصيرَتك تر، فالحب ما هو إلاّ إرادة الخير للمحبوب، والحرصُ على تقديمه له، عندها فقط ستعرف أن الحبَّ سعادةٌ، لا يُعكر صفوها شيء، وأنه رضا، لا يشوبه حقدٌ.
- ما أشدَّ تعب تلك الرؤوس التي تبحث عن كتفٍ ترتاح عليه، ولا تجدُ.
- لا تكلّم الناسَ على الحبِّ، أحببْهم.
- أتدرون ما العشق؟ العشق هو شوق النقص إلى الكمال. ما كان الكائنُ كائناً إلاّ بالعشق وحدَه، عشق الخير، فكلُّ موجود يعشق خيره الذي فيه بقاؤه واستمراره. فأغصان النبات وأوراقه تعشق الضوء، وتتجه نحوه لأنّ خيرَها فيه، وجذوره تعشق الماء، وتتجه نحوه، وتبحث عنه، فاستمرارها فيه. ولولا عشق الماء والنور لما كان نباتٌ على الإطلاق.

فهل أنت عاشق لخيرك، وما فيه بقاؤك، أم أنك تعشق شرّك، وما فيه فناؤك؟ كنْ عاشقاً على الحقيقة، فالعشق فيه بقاؤك.

- أتدرون ما الحب؟ الحب هو إرادة الخير للمحبوب.
- لا شيء يمكنه أن يجعل الحياة جميلةً، تستحق أن تُحيا، مثل حبٍّ عظيم.
- العشق كُنْه الوجود، كُنْ عاشقاً، تكنْ على الحقيقة.
- ويحَ العاشق من حبيب لا يفقه معنى العشق، على نفسه جنى، وهو الذي أسالَ دمَه. فلا يلومنّ إلاّ نفسَه.
- يصنع المعشوقُ عاشقَه على شِكلِه، فانظرْ ويحك من تعشق.
- ما يزال الجمال الإلهي يملأ الآفاق، ولكنّ العيون التي غُلّفت قلوبها ما عادت تراه. ويح عيون رأت هذا الجمال ولم تسبّح بحمد خالقه!
- وردةٌ لا تصنعُ ربيعاً، ولكنها تبشّر به، في الليالي الحالكة الظلام، تأنس قلوبنا بنور شمعةٍ، يبعث فينا الرّاحةَ والسّكينةَ.
- يا عبد الله أنت حرُّ الأحرار، خليفةُ الله، قدسُ الأقداس. لا تُطِعْ سوى الله، وإن فعلت فبالله، ولله. ولا تعشق غير الله، وإن عشقت فبالله، ولله. ولتكن أجمل ساعات عمرك حين

ترى الله في قلبك، واعلم أن أجملَ أيام العاشق يوم لقائه بمحبوبه. اعشق، واعلم أن المعشوقَ يصنعُ عاشقَه على شِكلِه، فانظر ويحك من تعشق.

- ورحتُ أطوفُ حول قلبي، لأنّك فيه.
- وماذا بيد القلب أن يفعل، غير الصّبرِ على فراق الحبيب؟
- طوبى لقلب العاشق، دائم الشكوى، يترجح بين مُشتاق، وسأشتاق.
- عندما يتخلى الجميع عنك، وتدرك أنك وحيد، تذكّر أن ثمة من لا ينساك، ينتظر منك أن تناديه: يا رب!
- لا تدع خوف الفراق يبدد جمال لقاء الحبيب، اكرع وجودكما معاً حتى الثمالة.
- شرعُ المحبة كرْهُ مخالفة الحبيب.
- واعلم أنه ليس في شرع الهوى أن يقول اللسان: لا، حيث يقول القلب: نعم.
- ما من فرع إلا وهو عاشق لأصله الذي صدر عنه، لما له فيه من كمال وسعادة. فانظر من أنت عاشق.
- واعلم أنه ليس ما يجلو القلوب، كالنحيب شوقاً إلى الحبيب.

- ما أكثر الأرقام المشغولة، أو التي لا ترد، ثمة خط مفتوح على الدوام، لا تتردد، ولن يرد عليك أحد إلا الله.
- ومن أعرض عن جمالي، لم يذق طعم وصالي. يا عبدي، أنت المختار بين سعادتك وشقائك.
- من ير الله في قلبه، يره في كل شيء، فكيف لا يراه في المحبوب؟
- ولا أعبأ بوجودي، وما أنا إليه صائر، ما دمت بعينك.
- لا تبتئس، إن رأيت الشمس محجوبة في كبد السماء، ابحث عن شمس قلبك، فهي دائمة الإشراق.
- إن كنت تخاف ممن تحب فأنت عبد، فالحبيبُ لا يعرف إلاّ الأنس بحبيبه.
- إذا لم يفتح الحب عينيّ بصيرتك فهو أعمى.
- كنْ كما تشاء، فالحب قد ولّاكَ.
- لا تكن عبداً لما تراه عينك، فالأشياء القيّمة لا ترى إلاّ بالقلب.
- بائسةٌ حياتك، وبلا طعم، إن لم يكنْ فيها أحدٌّ بانتظارك.
- وما برح القلب يسأل: أما زال يذكرني كما أذكره؟

- أيها الحبيب، سعادتي بسؤالك عني، سببُ فرحي بزوال سقمي مني.
- لمن تدّخر دموعك، إن لم تذرفْها من أجل الحبيب؟
- أطعموا الجائع المسكين، جودوا عليه بفضل مما جاد الله به عليكم، أطعموه من المحبة، جودوا عليه بالعشق، كونوا معه طيبين كرماء، كما كان الله معكم، لا تظلموه فتمنعوه من محبتكم، علّموه كيف يحب، كما علمكم الله، يسّروا له درب لقائكم، اكشفوا عنه الحجب كي يراكم، كما كشف الله عنكم الحجب، أحبوه كما أحبكم الله. من عشق الله يا محسنين، من محبة الله يا أحباء الله، جودوا على المسكين الذي جاء يطرق بابكم حافياً معفّراً شعره بالتراب، يرجو جودكم، ويطمع بلقائكم، ردوا عليه وجوده، وأعيدوا له قلبه، فقد أصبح أسير حبكم، لا حول له ولا قوة. من للبائس المسكين؟ من يستجيب لطرقاته على أبوابكم؟ فقد برح به الشوق إليكم.

قصائد وأشعار

أيها الحبيب...

مذ دخلتَ قلبي، تحطّمت الأصنامُ فيه،

ولم يعدْ مسكناً لغيرك،

وعندما يولي الناسُ وجوهَهم شطرَ البيت العتيق،

فإنّني أولّي وجهي شطرَ قلبي،

لأنّك فيه.

أيها الحبيب...

يقول المؤمنون: الجنة نعيم دائم، والنار عذاب قائم.

ما النعيم إلا في الاحتراق بنار عشقك،

وما الجحيم إلا في البعد عنك.

أيّها الحبيب...

عندما تتشابه الدروب عليّ،

فإنّني لا أشعر بالأمان إلاّ لأنّك تمسك بيدي

أيها الحبيب...

ما أحاطت السماوات بنور وجهك،

وناءت الأرض عن إدراك كنه جمالك،

ووسعك قلبي، فلم يبق مني إلا أنت،

وما عُدت أُعرفُ إلاّ بك.

أيها الحبيب...

مذ نأيتُ عنك، لم يبق لي ذكرٌ إلاّ أنت،

وكلما دنوت منك، زاد شوقي إليك،

طوبى لقلب لا حياة له إلاّ بك، يحترق بنار البعد عنك.

أيها الحبيب...

ما ظنُّك بلقاء يزيد ألمَ البعد عنك!

ما ظنُّك بوصالٍ يضرم نارَ الشوق إليك!

هلا رحمتَ عاشقاً مترجحاً بين نار القرب منك، وزمهرير البعد عنك؟

ما نفع القلبِ، إن لم يكنْ بيتَ الحبيب؟

ما نفع الروحِ إن لم تكن هائمةً به؟

أيها الحبيب...

كيف أستطيع رؤية وجهك!

وعيناي لا تحتملان إدامةَ النظر إلى وجهٍ رائقِ الحُسنِ من خَلْقِك؟

وما أعاق قلبي عن إدراك جمالك، إلا إغضاؤه في حضرة جلالك.

أيها الحبيب...

سأشطرُ حزنك شطرين، أحملُ عنك واحداً،

وأشاركُك نصفَك الآخر، ونصفه الباقي، ونصفه الأخير.

وكيف أكون أنا، إن كنت حزينة؟

أيها الحبيب...

لست أهلاً لجنتك، ولست ممن يخشى نارك،

من غير وجهك لا فرق عندي بين الجنة والنار،

وما قيمةُ البيت إن لم يكن فيه صاحب البيت.

أيها الحبيب...

كل عاشق يختار حبيبه على شِكلِه،

زجاجة عطر أو قطعة شواء،

وأنا اخترت فيض نورك في: "ألستُ"،

فلم يعد بين العاشقين رابح إلا أنا.

أيها الحبيب...

وعبثاً أُمسك الدمع في حضرتك،

علّه يطفئ نار الشوق إليك في قربك.

أيها الحبيب...

يأتي العاشقون يوم الحساب، بحسناتهم وآثامهم، ينتظرون فضل الله،

وآتي بحبِّك، فيُغفَر لهم،

وأحملُ لواءَهم إلى الجنَّةِ.

أيها الحبيب...

لو أن البحر المحيط تمده سبعة أبحر لأكتب أحبُّك، على أوراق الشجر وحبات الرمال،

لنفدت قبل أن تنفد كلمة أحبُّك.

بالحبّ وحده تكونين

أيتها الأميرة المسحورة، وجودك للعشق مرصودٌ، ولا تعرفين،

ومفتاحه معك، ولا تدرين،

كوني جميلةً، كما في أصل التكوين كنت،

يتحررْ من الأعراض قلبُك، ويُفك السحرُ عنك،

بالعشق وحدَه تكونين.

صعود

أيها القلب الكبير، المتشوق إلى كماله،

أضنتكَ الأعراضُ،

القمم العالية صعبةُ المنال،

ولكنَّ الصعود وحدَه سعادةُ.

بالعشق وحده تنجو.

أيتها الناي

أيتها الناي، فقط أنصتي إلى قلبي، وسيتغير أنينك إلى نحيب لا ينقطع، فأناُ مُذْ أُبعدت عن حبيبي، وعيناي تقطران دماً.

أيها المسكين

ويلٌ للعاشق من هجر الحبيب،

ويح عينيه المبيضتين من ألم الفراق.

أصغِ إلى صوت الريح والمطر،

أنصتْ لتغريد البلابل وهديل الحمام، ورقرقة المياه في السواقي.

إنّها تسبح باسم الخالقَ،

وأنت؛ أيها المسكين؛ بما انشغل لسانك؟

بحثت عنك

بحثت عنك في الزمانِ والمكانِ،

في الأبدِ وفي السرمدِ،

وفي اللانهاية،

ولمْ أجدْكِ....

سألت عنك الطيورَ، والفراشات، ومياهَ الجداول، وحقولَ الزهور،

وأسماكِّ المحيطاتِ، وعقبانَ السماء، وأسودَ الغابات،

سألت عنك الرياحَ والأمطارَ، والعواصفَ والبروقَ،

والضياءَ والظلامَ، والليلَ والنهارَ، والشمسَ والقمرَ،

سألت عنك الكواكبَ والنجومَ....

بحثتُ عنك، في السهولِ والجبالِ، وفي الصحارى والغاباتِ،

في الوديانِ السحيقةِ، وفي القممِ السامقةِ،

في البحارِ الرحبةِ، وفي أعماقِ المحيطات،

في السماواتِ والأرضِ، وفي المجراتِ البعيدةِ،

بحثت عنك في الزمانِ والمكانِ، في الأبدِ والسَّرمدِ وفي اللانهايةِ،

ولم أجدْكِ....

وجاءني الجواب:

يا مسكين، تعلَّم كيف تبحث،

سوف يطولُ انتظارك، ولن تجدَ ما تبحثُ عنه،

لا تكنْ كالشمسِ التي تفتّشُ عن نورها،

لا تكنْ كالنارِ التي تبحث عن حرارتها.

يا مسكين، عُدْ إليكَ تجدْها،

ابحثْ فيك عنها، فهي منك،

لا تنظر إلى خارجك، فتضلَّ عنها،

يا مسكين،

تعلَّمْ قبل فواتِ الأوان.

هل تذكرون

هل تذكرون؟ عندما كنا معاً،

ننصت للصوت الإلهي ينادينا: "ألست بربكم؟

هل تذكرون، كيف طربنا، وصحنا: بلى!

أما آن الآوان لنطرب من جديد، فلا نصحو من خمرة الحب؟

إلاّ أنت

لأنني أعرف أن أحداً غيرك لن يمنحني معنى وجودي،

لأنني أعرف أن أحداً غيرك لن يساعدني على الزمان والمكان،

فإنني عبثاً أدّخرُ الخطا التي توصلني إليك..

أيتها الذات العلية،

أيتها الصفات الإلهية،

كلُّ دروبي مباركة لأنها تقودني إليك،

فما ثمّة في الوجود إلا أنت،

كنت فيّ، فمحوتني عني بك،

فكيف أشتاقك، وتحنّ عيناي لرؤياك؟

وليس ثمة إلاّ أنت؟

مطر

نعم... هكذا أفضل... أن تمطري أيتها السماء،

وبعناد طفل مدلّل،

فكل دموعك لن تخفف ما بي،

وسأظلُّ دائماً، أرقب بكاءك بصبر،

ينوء إزاءه صبر أيوب،

وأحنُّ إلى السير تحت دموعك الممتدّة من الأرض إلى السماء،

أمطري،

فسماء قلبي تمطر بدون إيقاع،

بصمت رهيب،

ومنذا يستمع إلى وجيف قلبٍ مسكين؟

منذا يدرك أن الأيدي التي نحبها، غالباً ما تمس قلوبنا، فتجعلها تنصدع،

صدعها الذي لا يلتئم،

ويظل يمشي ببطء، ولكن بإصرار، ليشمل القلب كله،

ويتسرب النسغ بعناد،

حتى نفقد القدرة على الحركة.

معك

عندما أكون معك أخرجُ فوق الزمان والمكان،

وتسقط الأبعاد، ويمّحي المحال،

فأرى أبا الأنبياءِ يرفع الكعبة حجراً حجراً،

وأُبصر النار تتحول برداً وسلاماً،

وأشهد موسى يتلقى الكلمات،

والبتول تهزّ إليها بجذع النخل.

معك أكون واجب الوجود،

أتلقى النفخة الأولى،

وأعيد قراءة الكون بالنور الأزليّ،

فأذكر الأسماءَ التي جهلتها الملائكة،

وأرى الكون يسجد لي.

معك لا خوف ولا حزن،

ليس ثمة إلا السعادة،

فالتراب يعود إلى التراب،

ويتوقف الزمان المقيد عن الكون،

فلا زمان إلا أنت، ولا مكان إلا أنت...

حُبّبَ إليّ

حُبِّبَ إليه من دنياكم العطرُ،

وحبّب إليَّ من دنياكم أنتِ،

حبّب إليه من دنياكم النساءُ،

وحّبب إليّ من النساء أنتِ،

وجعلت قرة عينه في الصلاة،

وجعلت قرة عيني أنتِ.

اسجدوا لحبيبتي

وإذْ قلت للناس اسجدوا لحبيبتي،
فقد خلقتها على عيني،
وصُغت روحها بيدي،
علمتها كل الأسماء، ووضعت فيها كل النساء،
من صوتها رقرقة الجداول وغناء الحساسين،
أخذت الليل من شعرها، ومن إطراقها خلقت الصمت،
ثم قلت للناس: اسجدوا،
فسجد العاشقون كلهم أجمعين،
إلا أحفاد البغض، فكانوا من الخاسرين.

النّور الأزلي

عندما يشرق النور الأزلي في القلب،

ويفيض العرفان،

يسقط في الإمكان الزمانُ والمكانُ،

ويتلاشى الكيفُ والمتى،

ويمّحي الأنا والسّوى،

ولا يبقى إلاّ هُوْ.

في البدء كان التأنيثُ في المعنى،

وما يزال مصدر الوجود.

أيتها الذات الإلهية، أيتها الإرادة، أيتها القدرة...

يا علّة الوجود وحقيقته،

أنت أيتها الصفات... عنك فاضت المحبة،

منك وإليك الجمالُ النازلُ بالفيض، الصاعدُ بالعشق.

ثم كان التأنيث في النشأة،

في اللوح المحفوظ كنت منه، وكان منها،

فكنت أنت.

صدرت عن الصورة فكنت مرآتها،

فأضلّكما الشيطان، فغويتما،

والسّبيل إليها العشق.

بالعشق وحدَه تكونين،

يا واجبة الوجود في عينك،

أيتها المرآة الإلهية، مجلى النور الأزلي،

كوني كنهك، تكوني عشقاً،

يفيض على الأعيان، فلا يبقى إلاّ هُوْ.

بين يديك أيها الحاتمي الطائي، يا ابن عربي،

أقدّم ذلك التمجيدَ للتأنيث،

وأعود معك إلى النشأة الأولى:

إنّ الله جميل يحب الجمال،

كان الجمال أولاً، فكانت المحبة،

الله جميلٌ، وما يصدر عن الجميل جميل،

أحبَّ الجمالَ، فخلقه على صورته،

فكلُّ ما في الوجود جميل، لأنه من خلقه،

جمالُه في أنّه كان في علمه قبل أن يتلقى الأمرَ بالكون، فيكون،

وأجملُ ما في الوجود أنت أيها الإنسان،

جمالك في أنّك سُوّيت، وعُدّلت بيد الرحمن،

وزدت على ذلك بالنفخة الأولى،

وأجمل ما فيك المرأة: خلقك الله مجلى له، يليق بجماله،

وخلق الكون جميلاً، يذكّرك بجمالك الذاتي،

وخلق المرأة لكَ منكَ، أجملَ ما فيك، لتكون مرآتك.

هي مجلى الصّورة، كما أنك مجلى الصّورة،

وبقدر جمالها تكون الصورة مجلوة،

ترى فيها جوهرك، فتعرف الجمال الأول، واجبَ الوجودِ.

أنت على الصورة، ومنك أًخذت صورةٌ، ترى فيها الصورة الأولى.

كان الرجل، وكانت المرأة،

كنتِ أجملَ منه، لأنه خُلق من التراب،

عُدّل وسُوّي من التراب، ثمّ نُفخ فيه،

وصدرتِ أنت عنه بعد التسوية والتعديل،

فكانت فيه شوائبُ التراب والنشأة العنصرية،

وخلوتِ منها، فكنت أجمل،

فجعلك الحقُّ مجلى له، بك يعود إليه،

وجعل في الرجل عشقاً ومحبةً، كي لا يبتعد عن الصورة،

حرصاً منه عليه ومحبةً.

كنت الأقوى، وكان الأضعف:

قوته في قربه من النشأة العنصرية، وضعفه في قوته.

وضعفك في ابتعادك عن النشأة العنصرية، وقوتك في ضعفك.

كوني له كما في أصل التكوين كنت:

الجمالَ والمحبةَ، والمرآةَ المجلوّة.

تحرّري من عبوديتك بالعبودية،

وحرّريه من عبوديته بالمحبة.

كمالُك فيه، وكمالُه فيك،

فكونا كاملين؛ تكونا على الحقيقة.

قالت لي

هل تذكر يا حبيبي..
يوم جمعنا الرب في عالمه البرزخي،
وقال: ألست بربكم؟
هل تذكر كيف هتفنا معاً: "بلى".
في ذلك اليوم الأزلي، كنا معاً أنت وأنا،
يومها قلت لي: أنتِ لي، وقلتُ لك: أنا لك.
وتعاهدنا، تعانقنا.. وافترقنا.
وبعد ألف ألف عام،
التقينا.
كنت جالساً هناك على كرسيك الأسود،
تكلمني.. تنظر إليّ،
فتحملني كلماتك،
وتطير بي إلى ذلك العالم السرمدي،
كنت أمامك روحاً هائمة وجدت ذاتها،
طيراً نبت الريش في جناحيه من جديد،
كنت أسمعك بقلبي، وأصغي إليك بروحي،

أسمعك ولا أراك.

وأشرق النّور من عالم الأزل،

واستعادت روحي قدرتها على الصراخ:

هوذا العشق السرمدي.

هيا أيها الحبيب، تعال نكمل ما بدأناه في عالم الأزل،

وتعانقنا، وبكل الشوق الذي اختزناه منذ الأزل، تعاهدنا

ومثلما فعلنا معاً ذات مرة، خارج الزمان والمكان،

قلنا للعشق: "بلى".

انتظار

بين أن تأتي وألا تأتي،
فرق صغير.. هو عذابي،
وتمزقي على دروب العقارب الصغيرة،
التي تدب في وهن وصمت أليمين.
بين الانتظار واللقاء،
يمر اليأس بالقلب،
ولا يغادره أبدا،
إلا بعد أن يصدعه.
ما أتعس أن ننتظر من نحب،
وفي داخلنا خوف أسود،
يحيلنا إلى حطام،
يجعلنا نحس بالدقائق دهوراً طوالاً،
ونتحمل كل ما عاناه الإنسان من قلق،
منذ بدء الخليقة،
وحتى الطوفان الأخير.
حبيبتي...
ما دام قدرنا أن نلتقي،
لماذا نترك الأيام تصفعنا؟

أنت كَوْني

فقدت كوني، عندما في الأزل، أُخِذْتِ مني،
وأنا، مِن أوّلِ الخلق، أبحثُ عنّي،
كنتِ كَوْنِي، وكنتِ إِنّي.
كيف أنّي أبحثُ عنّي،
وأنتِ فيّ، وعندي، ومنّي؟

كنتُ كنزاً مخفياً

كان كنزاً مخفياً، فأحب أن يُعرَف، فخلقني، فبي عرفوه،
وكنتُ كنزاً مخفياً، فأحبَّ أنْ أُعرفَ، فخلقكِ منّي، فبك عرفتُني،
كنتُ كنزًا مخفياً فأحبَّ أن أُعرفَ، فخلقكِ منّي، فبكِ عرفتُه.
وكنتِ كنزًا مخفياً، فأحبّ أنْ تُعرَفِي، فخلقكِ مِني، فبي عرفوك.

قالت لي

منذ أمد بعيد،
كانت جدتي تحدثني عن أناس يعيشون هناك، فوق النجوم،
أناسٍ طيبين، لا يعرفون الحقد والشر،
ويحبون التسامحَ، والخيرَ، والحبَّ.
قلت لجدتي يومها: أريد أن ألحق بهم،
فهل من طائر يحملني إلى هناك؟
تبسّمت جدتي، ولم تجبْ...
وبقي الجواب لغزاً محيراً في نفسي.
وحين لقيتك عرفت الجواب:
أنت هو ذاك الطائر،
أنت من سيطير بي إلى ذاك العالم،
يوم لقيتك عرفت أنك قادم من هناك.
كيف سمح لك مليك ذاك العالم بالنزول؟
أم لعله بعثك نبياً؟
يبشر بالمحبة، ويهدي إلى الجمال؟
أحبَك الجميع، وتغنّوا باسمك، فقد بعثتهم من جديد.
إنْ كانوا قد أحبّوك هم، فقد عشقتك أنا.
ألا أيهذا الطائر الأزلي، حقق لي حلم طفولتي:
أريد أن أطير، أريد أن أصحبك إلى عالمك الأزلي، أن أكون في عالم الجمال المطلق.

لماذا؟

ما دمنا لا نفرح مثل الآخرين

ما دمنا لا نعيش مثل الآخرين

ما دمنا لا نتألم مثل الآخرين

لماذا يا حبيبتي؟

تريدين دوما أن نعشق مثلما يعشقون؟

وأن نفعل مثلما يفعلون

عندما كذبا يحبون

ألسنا يا صديقتي نملك راياتنا الخاصة

شاراتنا المميزة.. أحلامنا.. آلامنا..

ألا نملك يا صديقتي بحارنا الواسعة،

التي لم تطأها قدم، غير أقدامنا

ألا تمتد حقولنا الزاهية

امتداد السماء الصافية

إلاّ من غابات الورود

وآلاف الطيور

لماذا إذاً يا رائعة العينين

تريدين أن نكون،
مثلما زيفاً يكونون
ألسنا يا حلوتي نملك ينابيعنا الصافية
ودياننا العميقة.. قممنا السامية
جوارحنا ونسورنا
وأسلحتنا الصغيرة
لماذا إذاً يا حبيبتي
تريدين أن نغادر أملاكنا،
لنعيش على أرضهم كما يشاؤون
نجتر الذلّ أيامنا
ونورثه بعدنا أحفادنا.

رسالة إليها،

أيّتها الحبيبة

لن أتمكّن من الكتابة إليك اليوم، لأنّ القلب يفيض بالوجد، ولأنّ المشاعر والأحاسيس أكبر من أن يتمكّن العقل من الإحاطة بها. وأنت تعرفين أنّ لساني لطالما كان عاجزاً عن تصوير تلك الحالات الكثيرة التي عرفتها منذ عرفتك، والتي كنت أقف معها أمامك، لأنّي أنظر في عينيك، وأتأمل وجهك، كما يقف عابد بخشوع أمام جمال معبوده. كنت أصحو بين الفينة والأخرى في أثناء تلك الحالات، محاولاً إدراك كنه الموقف وتفسيره، ولكنني لا أخفي عنك، كلّما فعلت ذلك ازددت حيرة وانبهاراً بما يتركه وجودك في حياتي من أثر عظيم في نفسي، جعلني أرى هذه الحياة عظيمة وغنيّة.

ترى كيف يفعل العشق بنا كلّ هذا؟ وهل سيتوقف يوماً عن إغناء وجودنا ومنحه قيمته الجوهريّة؟ هل سيتوقف ذات يوم عن إسعادنا وبثّ الطمأنينة والسكينة في أعماقنا؟ من عرف العشق كما عرفته معك لن ينسى على الإطلاق أنّ الوجود من غير عشق لا معنى له، وأنّ الحياة من غيره لا طعم لها ولا لون.

لقد أصبحت أدرك أنّ الوجود الحقّ هو العشق، وأنّ هذا الوجود قبل العشق كان انتظاراً واستعداداً لاستقبال العشق، لأكون أهلاً له وقادراً على تحمّله وعيشه.

أيّتها الحبيبة... ما كنت أدرك قبل عشقك أنّ العشق العظيم يولّد آلاماً عظيمة. كنت لا أرى فيه إلّا الفرح والسعادة والطمأنينة والأمان. ولكنني اليوم أعرف أنّ الكمال وقف على الذات الإلهيّة، وأنني في عشقك أسعى نحو الكمال، ولابدّ لمن أراد حيازة رائحة الورد العطرة أن يلامس الأشواك، فيدمي أصابعه، وهل الرائحة إلّا من جهة الجوهر؟! والأشواك، أليست من جهة العرض؟ فكم يسعدنا جوهرنا ويشقينا عرضنا!

تلك هي السُّنّة في الوجود، أن تكون الثنائية في الأرض. فمع الليل والنهار والصحو والمطر والصيف والشتاء والولادة والموت، ثنائية أخرى داخل الوجود الإنساني ماهي إلّا امتداد لثنائية الكون، ألا ترين أننا نسعد ونشقى، ونفرح ونحزن، ونسرُّ ونتألم؟!

حبيبتي.. لقد ولد العشق فيّ منذ ولدتُ، فأنا والعشق سيّان. ولكنّه مازال راقداً في قلبي حتى جئت أنت، فولدت بالعشق من جديد، فأصبحت موجوداً على الحقيقة. الفرق بيننا وبين باقي

مفردات الكون أنّها هي عاشقة بالفعل مذ وجدت. فهي تعشق خيرها، وتعيشه بحسب نظام إلهيّ أوجدها، وسيّرها ليكون العالم جميلاً بعشقها، وتكون هي جميلة به. أمّا نحن فالعشق لا يمكن أن يخرج من القوة فيّنا إلى الفعل، إلّا بفضل جهدٍ كبير علينا أن نقوم به، هذا الجهد هو المعرفة التي كنّا بها عباداً لله مستخلفين في أرضه بإذنه. كنت أظنّ أنّ المعرفة كافية. اكتشافي الجديد منذ عشقتك، هو إدراكي أنّها ليست كذلك، ولابدّ من عشق يحرّرنا من قوّة المعرفة العقليّة، ليرقى بنا إلى المعرفة الجماليّة، فنرى جمال الحبيب على الحقيقة، فنعشقه، ويمكننا بعشقه من تحرير عشقنا الداخليّ، فيصبح عشقاً بالفعل، لنصبح موجودين على الحقيقة.

حبيبتي... أنت كنت مجلى تلك الإرادة الإلهيّة التي أدعوها عشقاً. كنت أنت ذلك العشق الكبير، الذي طالما كان عليّ انتظاره فيما مضى من عمري، ليحررني من المعرفة العقليّة، ويخرجني إلى ضياء المعرفة الجماليّة.

في كلّ يوم كنت أراني فيك. ولم تعد عيناك بحيرة نقيّة في أعالي جبال الألب لم ترها من قبل عين بشر، وإنّما أصبحتا محيطاً

سماويّاً لا أني أعشق الغوص فيه، بحثاً عن ذاتي، التي طالما كنت في شوق إليها.

أنا يا حبيبتي في حيرة من أمر عينيك، وفي خوف كبير. في حيرة من أمرهما لأنني أرى نفسي كواحد من صيّاديّ اللؤلؤ في أعماق الخليج العربيّ، يغوص، وأكبر حلم يأمل به حبة لؤلؤ بمائة قيراط، ولكنّه عندما يصبح في الأعماق يرى أمامه كنوز سليمان والإسكندر وقارون، فلا يعود يعرف ماذا يختار، ويصبح ما كان يبحث عنه صغيراً في عينيه. وفي خوف كبير، ليس منهما بما فيهما من أسرار الجمال والعشق والكمال، ولن يعرف أحد خوفاً كخوفي هذا، لأنني ذقت فعرفت، وأدركت عظم جمال العشق، وعشق الجمال فيك، فأصبحت خائفاً من الفقد، فصرت أحرص على كل ثانية في وجودي من أن تضيع، فلا أكتسب فيها كمالاً في عشقك، وعشقاً لكمالك.

الفهرس

العنوان	الصفحة
مقدمة	9
مقدمة بقلم الصديقة أمينة علوة	11 - 16
القسم الأول حول الحب والمحبة، والعشق والعشاق	17 - 132
حدّ المحبة	19 - 23
ما الحب؟	24 - 28
المحبة والمعرفة	29 - 33
الجمال والحب والمعرفة	34 - 36
العشق والكمال	37 - 42
هل العشق يقود إلى الكمال أم الكمال يقود إلى العشق؟	43 - 46
العشق طريق الكمال	47 - 48
يصنع العاشقُ معشوقَه على شِكْلِه، فانظرويحك من تعشق	49
أثر الحب في النفس	50
ذات العاشق	51
ما تفسيرما بين العاشقين، من تو افق في الحركات والأفعال مع البعد المكاني بينهما؟	52
العشق والوجود المادي	53 - 54
بؤس الوجود	55 - 58
الحبّ في مواجهة المعاناة الإنسانية	59 - 65
العاشق بين سعادتين	66 - 68
لماذا يبكي العاشق؟	69 - 73
لمَ يطوف العاشق حول حبيبه؟	74 - 77

العنوان	الصفحة
هل يمكن أن تتحد الحركتان؟	78
الحب يجعلك متفرداً	79
العشق والوجود	83 - 80
الحب والقداسة	84
الجمال والعشق، والحياة	86 - 85
جمال الزمان	91 - 87
الحب ملاذ آمن	93 - 92
ضفاف العشق	95 - 94
العشق الإلهي	97 - 96
العشق والتوحيد	100 - 98
الطبيعة وحدها تفهم الحب	105 - 101
قراءة في ابتسام العاشقين	106
العَرَض، والجوهر، والعشق	111 - 107
ما الحياة لولا الحب	112
قوى الذات وقوى العرَض	115 - 113
لماذا يغمض العشّاق أعينهم في أثناء العناق؟	116
حبُّ النظرة الأولى	118 - 117
لذّة الحب	120 - 119
العشق والشوق	123 - 121
نظرية في العشق والوجود	124
لا أحبك...	128 - 125
التخاطر بين العاشقين	129
العشق ولادة جديدة	132 - 130

العنوان	الصفحة
القسم الثاني كلمات وأشعار في العشق والجمال	133 - 182
ندم	139
الحب	140 - 152
قصائد وأشعار	153 - 178
أيها الحبيب...	153 - 156
بالحبّ وحده تكونين	157
صعود	157
أيتها الناي	158
أيها المسكين	158
بحثت عنك	159 - 160
هل تذكرون	161
إلا أنت	162
مطر	163
معك	164
حُبّبَ إليّ	165
اسجدوا لحبيبتي	166
النّور الأزلي	167 - 170
قالت لي	171 - 172
انتظار	173
أنت كَوْني	174
كنتُ كنزاً مخفياً	174
قالت لي	175
لماذا؟	176 - 177
رسالة إليها	179 - 182
الفهرس	183 - 185

حكايا النّاي

وبعد: فإنّ حكايا النّاي عزفُ روحٍ عاشقةٍ للجمال، بعد أن عشقها الكمال، يُنشئُ معبداً في داخلك، وينزع عنك، بلطفٍ ربّاني، قميصَك الطينيّ المنسوجَ بخيوط الشقاء، والمحاكَ من حبال الزوال، ويضع على كتفيك بردة الخلود، بردةً من نور، كلما خطوت بها خطوة، تألّق أمامك دربك إلى السماء، حيث ستنصت إلى حقيقة حكايا النّاي، وأنت، وذاتك، والحبُّ، والعشقُ، والنّورُ، في صلاة شكرٍ وحمدٍ على تلك النعمة التي فاضت عليك من النور الأزليّ.